هُروبٌ ماكِرٌ

خالد فرشاش

مقدمة المؤلف

سعيدٌ بولادة مولودي الأول، تماماً مثلما يسعدُ ايُّ ابٍ بابنه البكر. لكنني حزينٌ أيضا في نفس الوقت، لأنني أعلم مع كامل الأسف، أن مولودي قد وُلد يتيماً، سيفتقر المسكينُ لعناية وحنان الام. معاناة الكُتاب المبتدئين مثلي مع دور النشر تكادُ ألا تنتهي. فهم يضعون شروطاً كثيرة تكاد أن تكون تعجيزية، يا إما أن تطبع عشرات النسخ من مالك الخاص وأن تقوم بتسويقها على حسابك وإلا لن ينشروا لك عملك. في الحقيقة كتبت هذا العمل الأدبي المتواضع "هروب ماكر" لكي أشارك به في إحدى المسابقات الثقافية، طمعاً في الفوز بالمركز الأول. لأن الفائز سيطبع وسينشر له عمله مجانا، تحت نفقة دار النشر المنظمة للمسابقة. عندما اقتربت من إنهاء هذا العمل، اكتشفت بعض المشاكل في هذه المسابقة من قبيل أحقية احتفاظ دار النشر بكامل حقوق الطبع والنشر لمدة طويلة جدا. فقررت ألا أشارك وأن أفعل مثلما يفعل غالبية الكتاب المبتدئين. قررتُ أن أنشر الرواية يتيمة على منصات تحميل الكتب المجانية مثل: أمازون ستور، أبجد، هنداوي الخ. لي كل الشرف أيها القارئ، أن تقرأ روايتي الأولى على جهازك الإلكتروني مجاناً. أنا أقدس شغفك بالقراءة في زمن طغت عليه السمعيات والمرئيات. لدي التماسٌ بسيطٌ منك أيها

القارئ، فقط اعتني بعينيك قدر المستطاع. فالأجهزة الإلكترونية المختلفة، مثل الحاسب واللوحة الالكترونية والهاتف كلها تعمل بنظام البيكسل فشاشتها تصدرُ الأشعة الزرقاء المدمرة للعين، لهذا السبب استعمل النظرات الواقية ضد الأشعة الزرقاء؛ وإذا كان في استطاعتك أيها القارء اشتري جهاز قارئ الكتب الإلكتروني، المزود بتقنية الحبر الإلكتروني مثل الكوبو والكيندل. نحن في عصر العولمة حيث أصبح العالم بأسره قرية صغيرة نسيع أن نتواصل أينما كنا في هذه المعمورة عبر ضغطة زر واحدة، يسعدني ان تتواصل معي متى ما شئت أيها القارئ على الفايسبوك، على الواتساب، قناتي على اليوتيوب، على الإيميل (فقط اضغط على الوسيلة التي تريد وسيتم توجيهك تلقائياً)

قراءة ممتعة إلى الملتقى.

الاسلوبُ والتعبيرُ

تساءلت مع نفسي وما ذنب الذين يعانون من ركاكة التعبير؟ طبعاً لا ذنب لهم، أو ربما ذنبهم قليلٌ جداً، يكاد ألا يحصى، علماً أن التعبير يأتي في مرحلة جد متقدمة في عملية التواصل البشري، ليس هذا فحسب بل أعتقد أن الاسلوب اهم بكثير من المعلومة نفسها. السؤال الذي سأطرحهُ الآن، والذي أعتقد أنه أكثر دِقة هو: هل الاسلوبُ التعبيري مهارةٌ تكتسب؟ ام هو فطرةٌ؟ من المعلوم أن الذكاء ليس ثابت في نفس المستوى عند الجميع بل هو يتغير من شخص لآخر. إذا اخترنا الافتراض الأول، فإننا سنقول لربما ذنب الشخص ركيك التعبير يكمن في عدم تقدمه في مجالات العلم المختلفة والمتنوعة، من قراءة الكتب وغيرها من الأنشطة الفكرية التي تنمي قدرات التعبير. وإذا قلنا انها فطرية (مع العلم أنني أستبعد هذا الرأي الأخير) فإننا قد لا نجد أي تبرير لهذا النقص والتخلف التعبيري، بالتالي كل الاشخاص ذوي الركاكة التعبيرية هم ضحايا، مثلهم مثل الذين يزدادون بتشوه خلقي. شخصياً قرأتُ وما زلت أقرأ الكثير الكثير من المقالات والكتب، فلاحظت تحسناً لا بأس به في أسلوبي، ناهيك عن المعلومات الكثيرة التي اكتسبها والمتعة المحققة. أعتقدُ أن الأسلوب الجيد يأتي من القراءة وكذلك من الممارسة اي التمرن على

الكتابة بشكل روتيني. لستُ راضٍ تماماً عن اسلوبي فمازلت أراه سيء نوعاً ما، لكن على أية حال ليس الاسوء، كما أنني أعلم أنه سيزداد تحسناً فيما بعد، إذا ما واضبت على التمرينين اللذان ذكرتهما سابقاً. إن الاسلوب الجيد لا يقتصر فقط عن البلاغة والسلاسة انما أيضا يجب أن يتضمن قدراً لا بأس به من التميز الذاتي، وإلا سيكون التقليد على سبيل المثال اهم الطرق لاكتساب أسلوب جيد. الصراحة أيها القارئ، انني قد سمعتُ صوت الواجب الاخلاقي وهو ينادي عالياً، أنْ حدِث قراءِكَ عن اسلوبكَ. فلبيت الطلب، وشاركت معك أيها القارئ رأيي الشخصي في أسلوبي. مع العلم، أنّ هذا رأيي الشخصي، وأنا اثق فيه لأبعد الحدود، لكن في النهاية قد تختلفون معي وهذا أمرٌ مقبولٌ بل محمودٌ بالنسبة لي.

هروبٌ ماكرٌ

عنوانٌ فكرت فيه لأربع سنوات متواصلة، قبل حتى أن أبدأ بكتابة أول حرف من هذه الرواية. قد يبدوا للبعض عنواناً ذو نمط تقليدي، لكن في الصراحة إنه عنوانٌ عميقٌ يحمل في طياته الكثير الكثير من الدلالات الرمزية. قد يتساءل البعض منكم، الهروب مِن مَن؟ ولماذا تم تخصيص هذا الهروب بنعت المُكر؟ الأفكار حول الهروب كفعل بشري تكاد ألا تعد وألا تحصى.
الذي قصدتهُ أنا بالهروب هو هروبٌ من نوع آخر، يمكنك تسميته بالهروب الفلسفي إن شئت أيها القارئ.
الهروب من الوجود الممكن إلى العدم الحتمي. الهروب من التيه والضياع إلى مصيرٍ محتوم، ماذا كنت قبل أن توجد؟ طبعا لا شيء، إذا هذا هو مصيرك بعد أن تموت، لا شيء، هذا هو العدم الذي أريد أن أهرب إليه.
أما صفة المُكر فهي قصة طويلةٌ. ذات مساء كنت جالساً في المقهى، وسمعت أحدهم ينادي على رفيقه الذي كان يلعب معه الكارطا، بأعلى صوته: أيها الماكر تعالى الى هنا. وقد كرر كلمة الماكر عدة مرات، كأنه قد افحمهُ عندما نعتهُ بالماكر. فأجابه الاخر: لي الشرفُ بل كل الشرفِ، أن تنعتني بصفة الماكر، ألا تعلم أن الله تعالى خير الماكرين سبحانه؟ صمت المدعي طويلاً كأنهُ تلقى الضربة القاضية، وبماذا سيجيب الإنسان إذا استشهد له

أحدهم بقول الله تعالى؟ غير السمع والطاعة. بعد هذا الحوار الشيق الملهم الذي دار بين هذين الرجلين، اكتشفت شيئين إثنين، أولهما أن الرجل المدعي قد صدق عندما ادعى أن صديقه ماكر. ثانياً وبعد التأملِ في شخصية الماكر وجدتُ أنهُ لسببٍ او لآخر. أنها حقاً الشخصية المثلى لعيش حياة متوازية، فالمكر لا يعني الخديعة أو الغش بل شيء ما يعدل كل هذه الأشياء. فالحياة مليئة باليأس والشقاء ولن ينجوا من بؤسها وشقائها إلا ماكر مخضرمٌ يعرف كيف يجابه الأيام.

القصةُ

لكل شخص منا في هذه الحياة قصة مختلفة أو على الأقل متشابهة إلى حدٍّ ما. تكاد أن تكون القصصُ كثيرةً بعدد سكان الأرض. هناك سماه محددةٌ خاصة بكل جماعة أو مجتمع. تماماً مثل العقل الجمعيّ لمجتمع ما أو الثقافة الوطنية والمحلية. إن الفكر الجمعي للمجتمع المغربي يمكن تلخيصه بمثال القطارين، قطار يسير بسرعة عالية ومتقدمة على عدة اصعدة كالثقافة والحضارة والرقي بشكل عام الخ. وقطار آخر يسير ببطء حيث التخلف الاجتماعي والفكري وغيره. ان هذان القطاران لمشكل حقيقيٌ يصطلح عليه في علم الاجتماع بالطبقية، حيث يعيش نوعان مختلفان من المجتمعات داخل جغرافية واحدة، يتقاسمون نفس الطرق ونفس الأسواق، لكن لكلٍ منهما نمط حياةٍ مختلف خاص به. إن الطبقية تولد عدة مشاكل خطيرة من قبيل العنف والكره والتطرف إلخ. القصة التي نقلتها لك أيها القارئ نابعة من قلب الواقع المغربي أو ربما المغاربي، من قلب معاناة فئة طويلة عريضة من المجتمع. عندما تصد الأبواب في وجهك وتحاول جاهدا أن تغير حياتك فتجد في الأخير أن جهدك يكبُ سداً، عندها تجد نفسك مضطراً لركوب سفينة التغيير، هذه السفينة التي تهزم الأقدار، التي تحوّلك من تائه فاقد للبوصلة إلى شخص

يحقق ذاته، باحثاً بكل أمل عن معنناً لهذه الحياة. عندما تكون كادحاً في بلد غني من ناحية الثروات الطبيعية، فهذه. بحد ذاتها معاناة، فما بالكم عندما تنضاف معاناةٌ اجتماعيةٌ من نوع آخر مثل اليتم وغيره. لقد حاولت جاهداً أن أبحر بكم في سيكولوجية هذا الإنسان، حاولتُ أن أحلل لكم نفسيته المعقد التي يمكن اختصارها بعبارة "هروب ماكر" وسأتركُ لكم طبعاً الحق في التساؤل بخصوص هذا الهروب. مِن مَن؟ وإلى أين؟ وماهية هذا المكر؟

الكتابة هي المتنفس

لعل السؤال الذي يطرحه كل كاتب على نفسه، هو: لماذا أكتب؟ ما هي الغاية الحقيقية من الكتابة. لم يكن الجواب على هذا السؤال سهلاً، ففي الصراحة، انا لا أشتهي الشهرة، لأنني أعلم يقيناً أنّ سبيل الشهرة في المجتمعات العربية بشكل عام والمجتمع المغربي بشكل خاص لا تأتي من كتابة الكتب بل من التفاهة والفن. إذا كنت لا اشتهي الشهرة، فلماذا اكتب؟ هكذا تساءلت مع نفسي، مع العلم أن الكتابة ليست بالأمر السهل بتاتاً فهي تتطلب منا جهداً فكرياً كبيراً من جهة ووقتاً مديداً من جهة أخرى. التفسير الوحيد الذي وجدته يبرر سبب تفرغي لعالم التدوين والكتابة هو انني وجدت فيها، ذاتي الضائعة. إن الانعزاليين والانطوائيين مثلي، يمتازون بنوع من الاكتفاء الذاتي، أستطيع ان اكتفي بذاتي لمدة شهر أو شهرين كاملين دون الحاجة للتواصل مع اي شخص. داخل دائرة الوحدانية يجد الإنسانُ نفسه مضطراً للتعبير عن الكثير من الأشياء، من بينها تفاصيلٌ صغيرةٌ، لا أعتقد أن هناك شخص ما يستطيع الدخول معك في الحديث حولها. إن الإنسان بطلعه كائن اجتماعي يعيش في قطعان يمكننا اعتبارها قاعدة عامة، وعليها كما يقول المثل: لكل قاعدة استثناء، وأنا ارى أن الانطوائيين هم الاستثناء. لهذا السبب وغيره كثر، يجد

المرء نفسه أمام ضرورة التعبير الكتابي، وفي مرحلة ما يجد المرء بدون شعور نفسه قد بدئ حقا في مواجهة الصفحة البيضاء. أنا اتنفس عندما أقرأ. وأنتعش عندما أكتب.

مقال عن مشكل الماء الصالح للشرب

في الوقت الذي يظهر فيه الصنبور داخل بيتك جزءًا من تفاصيل حياة عادية. تفتحه أنّى تشاء وكيف ما ترغب، تتحوّل هذه الأداة إلى حلم المئات من القرويين المغاربة الذين يقطعون كيلومترات قاسية حتى يظفروا بما يضمن لهم شربة ماء ويتيح إطفاء ظمأ بهائمهم ويمكّنهم من غسل أوانيهم القليلة. وإذا ما تبّقى شيء ما، يمكنهم الاستحمام وهم يحسبون كم إناء ماء استقبلته أجسادهم.

وكما لو أن الجفاف يتحد مع قساوة الطبيعة، توّقفت السماء عن ريّ أراضٍ تقتات من الفلاحة البورية (البعلية)، وانتهت أحلام القرويين في الزراعة إلى كابوس انتهى بحصد الخسائر بدل درّ الأرباح، فأضحت البهائم سبيلًا وحيدًا للعشرات منهم حتى يضمنوا استمرارَ الحياة في موطن الأجداد، غير أن أنين الدلو الذي يُرمى في المطفية (حفرة عميقة تشيّد بعناية لحفظ الماء) ولا يجذب غير الفراغ، دفع بالقرويين إلى الاعتماد كليًا على مياه صنابير بعيدة عنهم، يُضاعف من بعدها طرقات لا تصلح حتى لسير البغال.

بين سهول منطقة عبدة، إقليم آسفي، حيث يشتد الصيف فتتجاوز الحرارة 40 درجة، كانت لـ CNN بالعربية

جولة في قرى متباعدة. تفرّقهم الجغرافيا والمنعرجات وحتى بعض الصراعات القبلية، لكنهم يجتمعون في خندق واحد: خندق الباحثين عن الماء الشروب.

في الطريق إلى العمورية

براقة لمين، أنت في باحة استراحة تابعة للجماعة القروية الثوابت، غير أن الكثير من سكان جماعة اثنين لغيات يزورونها لشراء ما يلزمهم من ضروريات. هنا تتوقف بك الحافلات القادمة من مدينة الدار البيضاء والمتجهة إلى مدينة الصويرة. لا حلّ لك إذا أردت تفادي المشي لكيلومترات غير الاستنجاد بعربة يجرّها بغل أو حصان عاش أغلب حياته في تلّقي السوط لنقل الناس. تسير العربة رويدًا رويدًا في طريق تبدو بداية صالحة للسيارات، بيدَ أن الطريق تتخلّى تدريجيًا عن ليونتها حتى تجد نفسك في منعرجات قادرة على إلقائك خارج العربة إن لم تتشبث جيدًا.

حوالي خمسة كيلومترات تفصل البراكة عن قرية العمورية، في الطريق انتصبت سقاية من صنبور واحد، وضعها رجل كريم بالمجان لأبناء القرية الذين يسكنون بالقرب أو لمن زار البراكة ويرغب بقليل من الماء له ولدابته. طوال الطريق وبُراز الحصان ينثر رائحة تزكم أنفاسك، وذيله الذي لم يكف عن الدوران يقترب منك حتى يكاد يصفع وجهك.

طبيعة باهتة هجرتها الخضرة بسبب شحّ السماء. مافيات مغلقة وأخرى مقفلة بمفاتيح.. يحدّ الطريق من الجانبين نوع من الصبار لا يُنبت إلّا الأذى. ما هي إلا لحظات حتى ظهرت سقاية أخرى قُرب مدرسة ابتدائية يلجها العشرات من الحالمين بمهن تنقذهم من قساوة العروبية (اسم يطلق كذلك على البادية بالمغرب)، غير أن مرافقنا أكد أن حارس هذه السقاية كثيرًا ما يغيب، وأن التلاميذ لا يجدون أحيانًا ما يغسلون به معدتهم من ظمأ الاكتظاظ ومرارة التنقل.

بين البيتية والمطفية.. قصة معاناة

منعرجات خطيرة هي أول ما يستقبلك في قرية العمورية، البعيدة بـ7 كلتمرات تقريبًا عن براكة لمين.. هي المنعرجات نفسها التي تمنع ما يصطلح عليه هنا بـ"البيتية" (خزانة الماء المتنقلة) من الوصول. يتحدث لنا ع. الهادي، 50 سنة، أب لخمسة أطفال، عن معاناة الأسرة لإيجاد الماء: "لا مجال هنا لحفر الآبار بسبب قلة المياه الجوفية وقلة ذات اليد.. الصنابير بعيدة عنا بـ4 كلم، لا حلّ لنا لجلب الماء غير الاعتماد على دوابنا.. أما البيتية، فغالبا لا تصل إلينا، وإن قبل صاحبها، فهو يطلب ثمنًا غاليًا".

"البيتية" هي صهريج الماء المتنقل على جرار. تحمل حوالي 4,5 ألف لتر من الماء. يبلغ ثمن الاستفادة منها

ما بين 200 و300 درهم. بينما يبلغ ثمن ملء البراميل التي تحملها الدواب أو العربات 10 دراهم لكل ألف لتر. يفضل القرويون "البيتية" لأنها تضمن لهم كمية أكبر من الماء تغنيهم عن التنقل اليومي، غير أن الطرقات لا تساعد في الاستفادة منها، كما أنه ليس لجميع القرويين القدرة على أداء ثمنها، لا سيما أن كميتها لا تكفي لمن لديه بضعة رؤوس ماشية سوى 10 أو 15 يومًا.

يلجأ القرويون إلى "المطفيات" لحفظ الماء، واحدة للشرب وأخرى للدواب واستعمالات التنظيف. كان المطر يملأ هذه المطفيات في سنوات الرخاء، أما الآن، فلا حل سوى المياه المدفوعة الثمن. كما يخلق الماء هنا تضامنًا بين السكان عند حالات العطش، عندما يعطي الجار جاره ما يفرّج به كربة يوم حتى يقضي الله أمرًا كان مفعولا، يخلق كذلك حالات عداوة، خاصة بين القرى التي حالفها الحظ وانتصبت الصنابير قربها، وبين تلك التي عاندتها رغبة مسؤول ما وأبعدتها عن مركز الماء.

يزيد من مرارة العطش في قرية العمورية حرارتها المرتفعة عن بقية القرى، إذ تنتصب المنازل في مُنحدر تختنق فيه الأجواء. يتحوّل الصيف هنا إلى قطعة عذاب، خاصة بعدما غيّر مُعظم السكان جدران منازلهم من الطين إلى الاسمنت اتقاءً لانهيار محتمل، فمكّنهم الإسمنت من اطمئنان على حياتهم لكنه أفقدهم مكيّفًا

طبيعيًا كان يساعدهم على نوم مطوّل يستريحون به من عناءٍ لاستقبال عناء آخر.

قطعة من العذاب

في اليوم الموالي، توجهنا إلى منطقة أخرى في العمق اسمها لمحسينات. كان لزامًا الوصول إلى مركز تسوّق يحمل اسم خميس نكة، بعد ركوب سيارة "خطاف" (نقل غير مرّخص) تحمل أكثر من حمولتها، لدرجة أن السائق دسّ معه راكبًا في مقعده. بمجرّد الوصول إلى المركز، يتحوّم حولك سائقو العربات المجرورة، يمنّون النفس الظفر براكب كريم يتيح لهم العودة إلى بيوتهم بقليل من الزاد.

بدأت الطريق مرنة رغم غياب التعبيد، ثم تطوّرت الصعوبة. امتزج اللون البني للحصان مع لون الأرض فحوّله إلى لوحة بجمال يكتنز المعاناة.. يُبطئ السير حينًا حين يجد نفسه أمام مرتفع ويرفعه حينًا عندما تستوي الأرض، وأحيانًا لا نجد غير النزول حتى يجتاز الحصان ممرًا يحمل بشكل غريب لفظ طريق. 13 كلم بين المركز ولمحسينات، لا يؤنس وُعورة الطريق إلّا أطفال يلقون عليك التحية بكثير من العفوية وهم يرعون بهائم أسرهم.

بعد بضعة كلمترات، وفي دوار خربة السبع، لاحت سقاية في الأفق. استقبلنا حارسها محمد بكثير من الترحاب. أكد لنا أن هذه السقاية تندرج في إطار الشطر الثاني من عملية تزويد قرى جماعة اثنين لغياث بالماء الشروب، ولا تزال الجماعة تنتظر الشطر الثالث الذي من المنتظر أن تستفيد منه بقية القرى. لذلك لم تجد 170 عائلة بهذه المنطقة غير تجرّع مرارة التنقل المُضني وقطع ما يصل إلى 4 كلم بالنسبة للقرى البعيدة حتى تستفيد من صنبورين في انتظار أن تنتصب سقاية يومًا ما بقربهم.

يُخبرنا الحارس أن تزوّد السكان بالماء من السقاية يمرّ غالبًا في أجواء عادية، إلّا عندما ينقطع الماء بسبب ثقب في الأنابيب، وهو ما تسبّب ذات مرة في انقطاع الماء لثلاثة أشهر، عانى خلالها السكان كثيرًا واضطروا لأداء ثمنٍ غالٍ لإقناع أصحاب صهاريج الماء بجلبها إلى قراهم أو قطع كيلومترات طويلة ببغالهم بحثًا عن صنابير تروي عطشهم.

لعرايش.. تجسيد عميق لمعاناة العطش

أوّل ما يتراءى لك وأنت تصل دوار لعرايش، جزء من منطقة لمحسينات، المطفيات المتناثرة هنا وهناك، كأنها ضمانة لقرويين بسطاء خوفًا من اشتداد العطش وانقطاع الطريق. نادرًا ما تجد مطفية داخل البيوت،

خوفًا من اتساخها واختلاط مياهها بمخلفات البهائم. أطفال يتوّلون مهمة جلب الماء دون أن يكترثوا بشمس حارقة تلهب وجوههم البريئة.. أقدامهم تحوّلت إلى قطع من حجر لدوسهم الدائم على أراضٍ مُسنّنة. منذ أشهرهم الأولى في الحياة يتعوّدون على قسوة تُنضجهم قبل الأوان. يحكي لنا ميلود، 33 سنة، أن ساكنة لعرايش استبشرت خيرًا بوعود مسؤولين عام 2006 بتزويد الدوار بالماء الشروب، غير أن الوعد اضمحل مع مرور السنين. يضيفُ أن اشتداد العطش في بعض المواسم وصعوبة نقل الماء يدفعان بالسكان إلى شرب مياه المطفيات المخصصة للبهائم، ويتبعون لأجل ذلك طريقة بسيطة لتصفية الماء: يضعون ثوبًا أبيضًا على الإناء قبل سكب محتواه في أفواههم، ثم ينطقون عبارة "باسم الله".. هكذا يبتعد الضرر عن الماء. يبقى هذا الدوار محظوظًا رغم بُعد الصنابير، فدوار آخر قريب منه لا يتوّفر حتى على الكهرباء، رغم أن خطوطها تمر بمحاذاته. يُدبّر الناس هنا الماء بكثير من الاقتصاد، يقتنعون أن بهائمهم أجدر باستهلاك الماء على أن يختلط بالصابون والشامبو، وحدهن الأمهات يشفقن على أطفالهن الصغار، فيسكبن عليهم لترات معدودة من الماء حتى لا تجف أجسادهم. يزيد الفقر من معاناتهم، لا حياة لزراعتهم مع الجفاف، والعطش وقلة الكلأ أثرا

على أرباحهم القليلة من تجارة البهائم. حُرموا من حق الحاضر وقد يُحرم حتى أبناؤهم من حق المستقبل، فنسبة الهدر المدرسي مرتفعة لبُعد المؤسسات التعليمية. لكن القرويين ينسون كل همومهم إلّا همًا واحدًا: "نريد ماءً دائمًا في بيوتنا وأراضينا"، هكذا كانت وصية ميلود وهو يوّدعنا.

نادتهم رغبة الرحيل أكثر من مرة، فالأسباب واضحة ولا تحتاج لكثير من الإسهاب.. إلّا أن الكبرياء يمنعهم من حمل أسمالهم القليلة والاتجاه إلى مدن تبتلعهم في صمت. يسمعون حكايات من سبقوهم إلى المراكز الحضرية، منهم من بقي أبد الدهر في دور صفيحي ومنهم من اغتنى بحق أو بغير حق. تتعدد مظاهر إغراء الهجرة، لكن هذه الأرض تربطهم كما لو أنها جزء منهم.. حتى ولو كان حق كأس ماء يتطلب واجبًا لا يستحق كل هذا العناء.

ملحوظة: اتصلنا بالمكتب الوطني للماء الصالح للشرب لأجل إدراج رأيه في هذه المادة.. لكننا لم نتوصل بأيّ جواب رغم مرور ثلاثة أيام على توجيه طلبنا.

CNN إسماعيل عزام ، الرباط

الفصل الأول: أرضُ البركة

تنطلق القصة من قرية صغيرة تسمى تمسمانت تقع في أقصى شمال الجهة الشرقية للمملكة المغربية، على مقربة من الحدود البرية المغربية الجزائرية، حيث الجبال العاليات، المشكلة جداراً طبيعيا كأنها أبراج وضعت خصيصاً لحماية الوديان الجارفة والهضاب الموردة والسهول الخضراء. يعيش في هذه القرية أناس طيبين مسالمين، ما يزالون تقليديين في تفكيرهم وفي عاداتهم. صحيح أن القرية ليست مزودة حتى بأبسط شروط الحياة. لا ماء شروب في الصنابير ولا كهرباء تنير البيوت ولا حتى طريق معبدة، لكن بالرغم من كل هذا البؤس الذي قد يبدوا لكم. إلا أن الحياة هنا هادئة، جميلة، حلوة، تستحق أن نتأمل فيها بكل جوارحنا. لا يعرفُ قيمتها إلا الذين كانوا يحيونها قبل هجرتهم الى المدينة. فأغلب الساكنة الذين هاجروا في السنوات الماضية إلى المدينة، باحثين عن المعاصرة والحداثة، قد عادوا إلى القرية خائبين وكلهم شوق للأصالة والطبيعة. لا أفهم كيف يستطيع الناس العيش في المدينة حيث التلوث البيئي و أصوات السيارات المزعجة التي لا تتوقف، مجرد التفكير في الأمر يشعرني بالغثيان. كثرت المقاهي المملوءة عن آخرها بالشباب حيث

يتعلمون العادات السيئة مثل التدخين وتضييع الوقت. قد أفهم أن سبب استقرار الناس في المدينة راجع الى اجابياتها من قبيل قرب المرافق مثل المدارس والمستشفيات الخ، لكن بالرغم من هذا الإغراء إلا أنني ما زلت متشبث بفكرة أن الحياة في البادية أفضل بكثير من الحياة في المدينة. يعتبر القنديل العتيق الموروث أباً عن جد ذو اللون الأخضر، المُوصَولُ بالأنبوب الحديدي المتصل بقنينة الغاز الصغيرة، لقد كان فخامة بل رفاهية حقيقية، الدار التي تملك واحداً، كانت تصنف من ضمن الدور الغنية، كان ضوء هذا القنديل أبيض عندما تكون الفتيلة جديدة ويصبح تدريجيا أصفر كلما اهترأت. كان ضوئه يكاد ألا يتعدى بضعة أمتار من مكان توهجه، من العجائب الغريبة، أن ضوء هذا القنديل، كان يشبه إلى حد بعيد عقل ساكنة الدوار الذي كان هو الآخر، يكاد ألا يتعدى حدود القرية. أن تكون منعزل عن العالم، هذا معناه ان تكون مركز في محيطك فقط. بعيدا عن صخب العولمة، كان يردد جدي دائما: وما شأني أنا بأخبار لا تتوقف على مدار الساعة، هؤلاء قتلوا، هذا ذبح امه، هذه العصابة سرقت بنك، تسونامي تقتل المئات وغيرها الكثير من الأخبار التي لا تنتهي، الكفيلة بقلب مزاج الشخص لا لشيء فقط لأنه قد أستمع إليها وملئ عقله بها. الجميع هنا يشتغلون في الفلاحة، شبابا وكهولا،

نساء ورجال. فلا يوجد أي بديل آخر، فالأراضي هنا خصبة ذات تربة حمراء، والماء وفير على طول السنة، فقد اتفق أجدادنا منذ القدم على التناوب في السقي، فقد أحدثوا ساقيات إسمنتية تمر على جميع الحقول، وبهذه الطريقة تستفيد جميع الحقول من نسب متساوية من الماء، كل صاحب حقل يعرف يوم السقي الخاص به.
لدينا هنا أشجار كثيرة ومتنوعة مثل أشجار الوز، الزيتون، الخروب، التين، البرتقال، المشمش، الخوخ، العنب وأشجار غيرها كثيرة بالإضافة إلى الخضراوات الطازجة الطبيعية الخالية تماما من كل المبيدات. لا أحد سيموت من الجوع هنا، يكفي أن تعتني بالأرض وستعتني بك هي الأخرى. يحكى لنا في زمن بعيد، أن جفافاً قاسياً قد ضرب قريتنا، فجميع ساكنة القرية، يستعيذون من زمن القحط، كلما ذكر أحدهم هذه الواقعة. يحكى أنه قد نفقت عشرات الاغنام والأبقار، وان الأوبئة قد انتشرت بكثرة، توفي على إثرها عدد كبير من الأطفال الرضع. لقد هاجر تلك السنة المشؤومة عدد كبير من الساكنة، هرباً من الهلاك المحقق. يحكى لنا انه عندما اشتدت الازمة على الساكنة وانعدمت حيلاتهم، ان فقيه الدوار، الذي يعتبر العقل المدبر والمرجع المعتمد في تسيير امور الدوار، قد افتى عليهم رأياً، كان قد طلب منهم ان يزوروا ولياً صالحاً، كان مدفوناً عندهم

في القرية منذ زمن، لكنهُ صار منسياً وانعدمت الزيارات إليه. طلب منهم فقيه الدوار، أن يعيدوا له اعتباره، لعله يرحمهم ببركته ويشفع لهم عند الله تعالى، كان هذا الوالي قد نسي تماما، اسمه سيدي أحمد بوغزال، يحكى أنه كان في حياته صاحب كرامات كثيرة، فقد كان يعيش وحيداً، مختلياً، منعزلاً عن الناس داخل حجرةٍ مبنية بالحجارة في أعلى الجبل، فكان يشفي الناس من جميع الأمراض، يكفي أن تمتلك النية لكي يقظي حوائجك، يكفي أن يضع يده على رأس المريض ثم يتمتم بكلماتٍ غامضاتٍ بعدها بدقائقٍ قليلاتٍ، ينهض المريض معافاً سليماً. كان يستطيع أيضا معرفة مكان وجود الماء وتحديد مدى عمقه بدقة عالية، كان عندما يضع إشارة لحفار الآبار لا يخطأ في تقديره أبدأ، عاش سيدي أحمد بوغزال وحيداً في كوخه، يحكى أيضا انه عندما كان يزورهُ الناس، كان يدخل الى كوخه الحجري فارغ اليدين فيخرج منه حاملا في يديه خبزا طازجاً ساخناً، هذا كله كان يحدث أمام أنظار ودهشة الناس، الذين كانوا يزورونه قصد التبرك ببركته الشريفة، بقي أمر الخبز الساخن سراً الى الأبد. لقد كان يزوره المرضى من مختلف بقاع العالم، خاصة من الجزائر ومصر. انتشر صيته أكثر وأكثر عندما رفض العمل مع حُفار الآبار، الذين عرضوا عليه مبالغ فائقة، لكنه رفض

رفضاً قاطعاً، فكان يردد دائما أن الماء هو ماء الله، فلا يجب المتاجرة فيه لا من بعيد ولا من قريب. بقي على هذه الحال زاهداً مزهداً في الحياة وَحِيداً مُوَحِداً، كان يجوب الوديان والحقول، عادة ما كان يرى رفقت مجموعة من الكلاب والقطط التي تتبع خطاه وعصاهُ الطويلةُ في يده لا تفارقه. بقي على هذه الحال الى ان اختفى عن الانظار، عندما قام الساكنة بتقصي أثره لمعرفة سبب الاختفاء، اكتشفوا في الاخير وجود قبر حديث العهد داخل بيته الحجري، علموا أن سيدي أحمد بوغزال قد مات وأنه قد دفن هنا في الكوخ نفسه الذي عاش فيه، بقي لغز من قام بدفنه معلقاً للأبد. مرت السنين وتعاقبت الأجيال، فمسح سيدي أحمد بوغزال من ذاكرة الساكنة، وطمست الطبيعة معالم بيته الحجري الذي أصبح يبدوا من بعيد مثل كومة متراكمة من الحجارة. بعدما فقدت ساكنة الدوار الأمل في صلوات الاستسقاء التي قاموا بها، وبعدما ذكّرهم فقيه الدوار بهذا الشريف المنسي المدفون في دوارهم. اجتمعت ساكنة الدوار ذات صباح يائسين للقيام بالزيارة لهذا الولي الصالح، كما أخبرهم الفقيه، لعله يشفع لهم عند الله وتزول عنهم هذه اللعنة التي فتكت بهم اشد فتك. قاموا أولا بتنظيف المكان من الحشائش والقاذورات، وأعادوا بناء الحجارة المتساقطة، ثم رفعوا سقف البيت من جديد

بعدما كان قد تحطم، وقاموا بتزيين قبر سيدي بوغزال بغطاء أخضر اللون، يليق بمقامه، ثم أشعلوا الشمع وانتظروا حلول الظلام، ذبحوا له ديكا اسود سمين وتمتم فقيه القرية بكلمات غير مفهومة تبدوا خاشعة. بينما هم في هذه الطقوس المليئة بالإيمان والاطمئنان والشعور الممزوج بالضعف والقهر، فإذا برعديةٍ مدويةٍ تكسر هذا السكوت، غير مصدقين الذي سمعوه. هل يعقل هذا؟ هل هي قنبلة أم رعدية؟ هل سيهطل المطر بعد كل هذا الجفاف؟، نظروا جميعهم الى السماء فإذا بالبرق يرسمُ كلماتٍ يبدوا أن كل من يحسنُ القراءة قد فهم معناها وانفجر باكياً ثم بدأ الرعد يزمجر فوق رؤوسهم وصدى صوتهِ تردهُ عليهم الجبال الشامخات، بدأت الرياح تعصف شرقاً وتارة غرباً، اسودت السماء رويداً رويداً. وقف الجميع متفرجين، غير مصدقين الذي يحصل الآن أمام أنظارهم، لا شك انها معجزة عظيمة وسيكون كل الحضور شهوداً عليها أبد الدهر، بدأ الكل بالتكبير والحمد. هطلت أول قطرة من الماء، ثم تسارعت القطرات، الواحدة تلوى الأخرى تدريجيا. اختلطت القطرات مع التربة الجافة فانبثقت منها رائحة زكية، تشعر كل انسانٍ بسكونٍ وراحةٍ نفسيةٍ غريبةٍ. فرح الجميع فرحا هيستيريا، كان منظرهم مثل المجانين، يقفزون تارةً ويتمرغون في الطين تارةً أخرى. لقد

حدثت فعلا المعجزة، ما هي الى دقائق من المطر المنهمر حتى انفجرت العيون المائية من باطن الأرض، فعادت المياه الى مجاريها، بعد غياب طويل، عادت الحياة الى طبيعتها. منذ ذلك الحين أصبح لهذا الولي الصالح موسماً خاصاً يليق بمقامه، وَعدَةُ سيدي أحمد بوغزال، تقام مرة واحدة في السنة لثلاثة ايام متواصلة، يحج الناس اليها من كل حدب وحين، قصد التبرك ببركته، تذبح له كل سنة ثلاثة بقرات سمان، وتنصب له ثلاثة خيام، وتأتي فرق التبوريدة من كل مكان، يكتسي المكان رونقا خاصاً بين صوت البارود وصهيل الجياد ورائحة الكسكس الفواحة. منذ ذلك الحين والشيوخ في القرية يذكرون في كل مناسبة الأجيال الصاعدة بحادثة سيدي أحمد بوغزال. كان جدي يردد دائما: إن الجفاف من سَعْدِ الكلاب وأن السماء ذات كرامة لا تمطر على الأرض التي يكثر فيها الفساد والحرام، وحتى وإن امطرت في مثل هذه الاراضي فهذا فقط رفقاً بالشيوخ الرُّكع والصِّبيان الرُّضع والبهائِم البُكَّم. فلولا بركة سيدنا أحمد بوغزال، لأصبح المكان صحراء جرداء خالية من الحياة تماماً.

الفصل الثاني: ملاكٌ على الأرضِ يٌعاني

العمل هنا في الحقول ليس سهلاً بالمرة. يوم آخر من العذاب الجسدي والنفسي على حد سواء، هل تعلم أيها القارئ ما هو الفرق بيني وبين السجين المحكوم عليه بالأعمال الشاقة؟ طبعا لا، انت لا تعلم، ببساطة لأنك غالبا لم تجرب أياً منهما، أن تكون محكوما بالأعمال الشاقة أهون بكثير من أن تعيش مثل حياتي هذه، لان المحكوم عليه بالأعمال الشاقة، على الأقل، يعرف ما الذي يفعله ولماذا والى متى. اما انا فكل ما اعرفه هو انه يجب على أن أعمل، من ساعة الخامسة صباحا الى ساعة الخامسة مساءا. تائه بلا جواب منطقي، مبرمج مثل آلة، لا إرادة لها. انا اشتغل في حقل زوج خالتي، طيلة النهار واقوم بكل أشغال المنزل الشاقة، من ملئ القنينات بالماء من عين أغبال التي تبعد عن دوارنا بثمانية عشر كيلومتر، وكذلك أنا من يقوم بحطب الحطب من غابة أقوير المجاورة للدوار. أعرف انني دخلت مباشرة في السرد دون مقدمات. لكن أعدك أيها القارئ كما جرى التقليد الأدبي أنك ستتعرف أكثر وأكثر عني.

أشتغل في الفلاحة مثل بقية ساكنة الدوار، أقوم بغرس البطاطس وعندما تنضج اقوم بالتنقيب عنها في التربة واقوم بجمعيها وغسلها في الساقية وتحميلها على سرج الحمار "مبروك" ثم أقوم ببيعها في السوق الأسبوعي، الذي يبعد عن الحقل بقرابة خمسة عشر كيلومتر تقريبا. كان يوم الاثنين هو المخصص لهذا السوق. لا أدري إلى اي حد تصل قدرة الحمار مبروك على التمييز بين أيام الأسبوع، لكنه كان فعليا لا يحب يوم الاثنين، ففي كل صبيحة هذا اليوم، كان يتثاقل في مشيته، بل يتظاهر بالمرض. كنت أخاطبه بصرامة كأنه يفهم ما أقوله له، كأنه كائن واعٍ من يدري قد يكون حقيقة واعٍ لكنه لا يحسنُ التعبير، كنت أخاطبهُ: اليوم هو الاثنين ويجب علينا إيصال البضاعة إلى السوق، "أرى زيد أمبروك، خلينا من القوالب ديالك". كنت أخرج من المنزل قبل آذان الفجر، حاملا في يدي القنديل الزيتي، وقوت يومي الذي يتكون من قنينة زجاجية صغيرة تحتوي على الشاي وربع خبزة وحبة طماطم وحبة بصل، كنا انني كنت اقطف الفواكه من الحقول. جرتِ العادةُ دائماً أن أصل الى الحقل تزامنا مع اذان الفجر أو بعده بقليل، أحمِّل اكياس البطاطس على سرج الحمار مبروك، التي كنت قد أعددتها سابقا وأعزل الحبة الكبيرة لوحدها والصغيرة لوحدها ثم أحمل على سرج مبروك. فكنت

انطلق والظلام ما يزال في الأفق والقنديل الزيتي معلق في سرج الحمار. كنا نتوقف لنستريح بين كل فينة وأخرى. كنت اخلع السرج عن حماري مبروك ليستريح قليلا، خاصة عندما كنا نمر أمام إحدى العيون الفياضة بالماء العذب، عين المرجية وعين آلموا وعين تريو، فمثل هذه الأمكنة، عادة ما تكون مثل جنة على الأرض، فالعشب الأخضر، والفاكهة المتدلية من الأشجار ورائحة النعناع ومالويزة تملأ المكان. هكذا كانت تكون مسيرتنا نحو السوق، كنا نصل إليه مع بزوغ الشمس. لقد كان السوق الأسبوعي كبيرا جدا، فكل الدواوير منها البعيدة والقريبة، تأتي للتسوق من هنا. تبدأ الحركة بالانتعاش رويداً رويداً، بعدما أن كانت في البدايةِ سكوناً تاماً، في لحظة من اللحظات يصبح المكان صخباً، حيثُ تتلاقى فيه كل الأصوات وتتصادم كل ترددات المختلفة، بين العشاب الذي يصيح بأعلى صوته "لي عندوا الحريق فضهر مرحبا بيه... عندي ليه الحل" و بين صاحب الخضر و الفواكه، الذي هو الآخر يصيح بأعلى صوته " عندي لمروا هنا مرحبا بيكم الجودة و الثمن كلشي كاين" اما الصوت الذي كان أكثر وضوحاً والذي يمكن سماعه من بعد كيلومترات لأنه مان يستعمل مكبرات صوت جيدة، فقد كان صاحب البيكوب البيضاء المعروف بإسم "الكاوري"، الذي يأتي من اروبا محملا

بمختلف أنواع التكنولوجيا الغربية، كان يجتمع حوله حشد كبير من البشر و عيونهم مبرققة في بضاعته السحرية، التي لا يجدون لها تفسيراً غير انها مسحورة، مثلا جهاز راديو و كاسيت، حجمه حجم كف اليد، لكن صوته قوي، مصباح بحجم الولاعة، لكن ضوؤه يصل لامتار عديدة، و الكثير من المنتوجات الاخرى، اما المنتج الذي كان ينتظره الجميع فهو صندوق العجب، صندوق خشبيٌ غريب بواجهة زجاجية، يظهر على زجاجته بشر مثلنا غير انهم أقزام يقال انهم محبوسين في هذا الصندوق. كان السوق يعج بعشرات الاصوات الأخرى، التي تصيح كلها في آنٍ واحد. اما انا فكنت اذهب الى المكان الخضراوات المخصص للبيع بالجملة. أعرض سلعتي وانتظر وصول أصحاب الجملة، فكنت ابيع لمن يقدم إلى المبلغ الأكبر هكذا علمني زوج خالتي. كنت احصل مقابل كيسين من البطاطا على مئة وخمسين درهما في أسوء الأحيان ومئتي درهم في أفضلها. بعدها كنت اتجهُ إلى مكان الحلقة حيث يوجد شيخ كفيف اسمه الشيخ أحمد ليو، تعجبني قصصه ذات العبرة والحكمة، لقد كان يمزج بين فن الحكي والمشيخة عن طريق استعمال الطبل ومرافقه الذي يستعمل المزمار. كنت اتعمد التسكع أمام مقهى السوق الذي يبيع الشواء، كنا أشتهي أكل الكفتة المشوية وغيرها من

المشويات، لكن لم أكن املك المال الكافي، لهذا كنت أكتفي بالتعرض للدخان الصادر من مجامر الشواء حتى أدخم ثم اتجه إلى بائع كران التي تعتبر أرخص وجبة، بدرهمين فقط تستطيع ان تآكل حتى تمتلئ بطنك عن آخرها. طبعا لم أكن أحتفظ بمبلغ البطاطس لنفسي، صحيح انني أنا من اقوم بغرسها وسقيها وجنيها وبيعها. إلا أنني لم أكن أنا الذي يأخذ المبلغ. فقد كنت اسلمه لزوج خالتي كاملاً. كان يوم الاثنين هو أفضل أيامه، مثل آخر الشهر عند الموظفين. لقد كان ينتظر عودتي من السوق في شوق، لكي أسلم له المبلغ، كان يبتسم عندما اسلمه النقود، ابتسامة ماكرة، مثل ذئب لا تستطيع معرفة ما ينوي عليه. فقد كان زوج خالتي بخيلا جدا، ليس فقط معي لكن مع الجميع.

البخيل هو شخص ينتحر جوعاً، ليقتل ورثته بالتخمة.

عبد الله محمد الداوود، متعة الحديث -الجزء الأول

فالمال كان بالنسبة له هو الإله الذي يعبده ويقدسه. لطالما كانت تطلب منه خالتي أن يعطيني نصف المبلغ، فهي القسمة العادلة بيننا، لأنني أصبحت شابا يافعا واحتياجاتي الشخصية قد ازدادت بل وأيضا لأنني أنا من يقوم بكل شيء. لكنه طبعا كان كالصخرة الصماء، قاسيا جدا، كان دائما ما يخاطبها بلهجة قاسية، كان

جوابه دائما: اسمعي ايتها المخلوقة (يقصد خالتي التي هي زوجته) يكفي أنه يأكل ويشرب ولديه مكان ينام فيه مجانا... ماذا يحتاج أكثر من ذلك؟! كانت خالتي لا تجيبه تجنبا للمشاكل، كانت دائما تنتظر خروجه وبعدها تشفي غيضها بالكلام: "آتفوا!، ياله من جيعان" فزوج خالتي مثل الوحش لكن عندما يغضب يصبح وحش حقيقي. اما انا فقد كنت أحزن كثيرا لهذا الواقع المرّ. لم أكن اعتبر نفسي أكثر قيمة من قيمة الحمار "مبروك" فكلانا يبذل مجهودا بدنيا طيلة النهار في الحقل ولا نجني اي شيء، باستثناء مأكلنا ومشربنا. لهذا كنت أشفق عليه وهو كذلك كان يشفق عليّ، على الأقل هذا ما أعتقد. لقد كانت براكتي أقصد غرفتي كئيبة لدرجة مهولة، حجمها لا يتعدى مترين على مترين، كانت في الماضي تفي بالغرض، أما الآن أصبحت أكبر منها، مبنية بالطوبية والخشب، أنا السقف فكان مكون من صفائح القزدير، فقد كانت البراكة بلا نوافذ، لهذا السبب هي مظلمة، كذلك بلا باب، فقط اضع صفيحة حديدية على مكان الباب في فصل الشتاء لمنع دخول البرد وأضع حجاباً من الكتان في فصل الصيف. اما سريري فقد كان عبارة عن مجموعة من الصناديق اللوحية، انام عليها. كانت غرفتي فوق السطح، كانت لا تختلف كثيرا عن اسطبل الحمار مبروك فكلانا نعيش في مكان منعزل

وضيق. لم أشك يوما ان خالتي قد قصرت اتجاهي في اي شيء، فقد عاملتني كما تعامل الام ابنائها تماما، بل في بعض المرات أشعر انها تعاملني أفضل من أبنائها البيولوجيين حتى. كنت وما زلت أتساءل مع نفسي من هي الام الحقيقي، هل هي التي تلد وتضع؟ أم التي تربي وتسهر؟

جميل أن تكتب امرأة وتُخرج فيلماً عن الأمومة والعنوسة والمشاعر التي تنتاب النساء عند الولادة، وتلك المتعلقة بغريزتهن في الإنجاب. لاحظنا ذلك من سياق الشريط الجاذب والعميق pupille وعنوانه بالإنكليزية in safe hands للمخرجة الفرنسية "جين هيري" عن سيناريو صاغته بكثير من خيوط القلب والوجدان والأنوثة الراقية، لتعتبر أن الأساس هو المولود وعلى الجميع تقديم كافة التنازلات كرمي مصلحته.

لا أدري كيف كانت ستكون حياتي بدون خالتي؟ فمثلا هذا الشتاء اعطتني غطاءين ساخنين جديدين، لمواجهة البرد القارس. لقد قامت بهذا خلسة. لو رآها زوجها لأشبعها ضربا بدون شك. لم يهمني الغطاءين كثيرا، بقدر ما همتني فكرة ان هناك في هذا الوجود المتوحش شخصا ما يهتم بي ولأمري. أيضا كانت تعطيني من

حين لآخر، دراهيم خلستا. بل حتى في الأكل كانت تضاعف لي الكمية في كثير من الأحيان. لأنها كانت تعلم أنى ابذل جهدا جسديا عظيما في الحقل. لو بقيت أعد الخير الذي قدمته لي خالتي، فلن أنتهي من عده، إلا بعد مئات الصفحات. كنت أشعر في بعض الأحيان أن روح امي لم ترتقي للسماء انما دخلت في جسد خالتي، لأنها لم تحرمني من شعور وحنان الام أبداً. كانت حياتي عبارة عن روتين يتكرر يوميا، لا شيء يتغير غير عمري الذي يزداد ويزداد معه إلى ور بالتيه والضياع. كنت أخرج من المنزل على الساعة الخامسة صباحاً وأعود اليه مع الخامسة مساءاً. كنت أعود وانا جد متعب ومنهك من العياء، لدرجة أنني كنت أسقط هامدا في مكاني من شدة التعب مثل خشبة لا إرادة لها. فقط اغفوا بدون شعور حتى توقظني خطى خالتي وهي تصعد الدروج، كانت تدفع الباب بهدوء وهي تردد: هل نمت يا بني؟! انهض، انهض، لتأكل بضع لقيمات، ما دام الاكل ساخن قبل ان يبرد، يا لك من مسكين، لا بد وأنك بذلت اليوم جهدا عظيما في الحقل اليوم! كانت خالتي الطيبة تأتي بالطعام إلى غرفتي وتنتظرني حتى انهي الأكل فتأخذ الأواني الفارغة وتنزلهم إلى الطابق الأول. لقد كنت انام باكرا واستيقظ باكرا، كما يفعل الدجاج. لم أكن أفكر في اي شيء تقريبا غير الحقل، فقد

كان هو كل شيء بالنسبة لي. كنت فقط أعمل وأعمل مثل الآلة تماما. لقد كان ممنوع على النزول إلى الطابق الأول، فقط أفتح الباب الخارجي وأطلع الدرج مباشرة إلى السطح حيث برّاكتي، أما الحمام والمرحاض فقد كانوا في الخارج منفصلين عن المنزل. لقد كنت حقا أشعر بذلك الفارق الطبقي في كل شيء أو بتعبير آخر كنت أشعر كأنني البطة السوداء، فأبناء خالتي يدرسون ويلبسون أفضل الثياب، اما انا فكنت مثل الخدام. ما زلت اتذكر جيدا يوم تم طردي من الطابق الأول، حينها انتقلت أو بالعبارة صحيحة نقِّلت غصبا عن انفي، للسكن هنا في هذه الغرفة أعلى السطح، رفقة الفئران الصغيرة، التي كونت معها صداقة رائعة، فقد كان تحميني من العقارب والافاعي السامة، فقد حدث هذا أكثر من مرة، فالاتفاق الذي أبرمته معها يقول احميني ولن أؤذيك. حسنا سأحكي لكم قصة طردي من الطابق الاول وتهجيري الى السطح، سأحول الاختصار قدر الامكان. لقد كان عمري أربعة عشر سنة، عندما نشب اول شجار حاد بين خالتي وزوجها. ما زلت اتذكر قوله لها وهو يصرخ كالمجنون: "فليخرج من منزلي، فليذهب إلى الخيرية أو إلى الشارع" بينما خالتي كانت جالست على الأرض وتبكي وهي تردد: عيب عليك ايها الرجل عيب. كنت واقفا خلف الباب

استمع للحوار. لم اقصد التجسس عليهما. لكن كانت لي عادة سيئة هي الفضول. ما زلت أذكر يومها لقد شعرت بحزن شديد غمرني، لأنني عرفت انني سبب ذلك الشجار، كما انني كنت اعلم أيضا انني لم أفعل أي شيء سيء في نفس الوقت. فأنا طفل مسالم واسمع الكلام. لم أعد أتحمل هذا الشجار فاستجمعت قواي وفتحت الباب، لم أعد اطيق فكرة انني السبب في هذا الشجار. في بعض الأحيان لا يكون لنا خيار ثالث، يا إما المواجهة أو الانسحاب. زوج خالتي ما فتئ أن خلع حزامه الجلدي البني من سرواله، عندما رآني ثم قام بلويه على يده مرتين وهو يردد: "كنت تتجسس علينا يا ابن الحرام؟ يا لك من شيطان صغير! سوف اعيد تربيتك من جديد يا ولد الحرام". ثم قام بضربي ضربة واحدة على مستوى ظهري، لكنها كانت مؤلمة حقا، لقد ضل مكان الضربة ازرق لمدة طويلة. لقد ضربني الحقير بأقصى جهده، لدرجة أنه قد خيل إلى أنني رأيت النجوم في عز النهار. صاحت خالتي: حَرْبَشْ أيها الرجل أن تلمس شعرة واحدة من ابني. استجمعت خالتي قواها وحضنتني بين ذراعيها مخاطبة زوجها بنبرة التحدي، كانت علامات الوضوح والصدق بادية عليها: "اسمع يا رجل، إما أن يبقى ابني هنا (كانت تقصدني انا طبعا) وإما انا من ستخرج معه إلى الشارع". ظهر التوتر على

زوج خالتي، فبدأ يسب بكلام نابي، وخرج هاربا، مثل كلب مسعور، رضخ الباب من ورائه بقوة، لقد فرّ هذا المسعور إلى المقهى الذي يقضي فيه كلّ وقتهِ. فقد كان مدمن على مخدر الحشيش، وشراب مخمر يسمى بالماحيا (نوع من انواع الشراب محلية الصنع). فقد كان مقهى الدوار هو جحره، خاصة عندما يكون منزعجاً، أو عندما يكون سعيداً، ما زلت أتساءل ليومنا هذا، - كيف يمكن لهذا الجحر أن يجمع بين المتناقضين؟ لم تؤلمني الضربة التي تلقيتها، أكثر من ألم حقيقة انني إنسان منبوذٌ خاصةً من الشخص الأقرب مني، أو على الأقل كما كنت أعتقد، فكلماته تلك لم أستطع نسيانها إلى يومنا هذا، وأعتقد أنها سترافقني مدى الحياة. كما يقول أحد العارفين بشؤون الحياة: إن الجرح المعنوي أخطر وأشد بكثير من الجرح المادي. فالجروح المادية مهما بدت عميقةً في الجسم، إلا أنها تتعافى، اما الجروح النفسية من ظلم وافتراء وكذب ونفاق، فهي لا تتعافى بل ترافقُ صاحبها إلى القبر. فقد كنت أعتقد قبل هذا الحادث ان زوج خالتي هو الأب الغائب، حتى وإن كان عدواني معي دائماً، إلا أنني كنت أعتقد أنها طبيعته، هو هكذا معاق في التعبير عن حبه لي، لكن يا اسفاه فلقد اتضح لي جلياً انها كانت مجرد محاولة فاشلة مني للبحث عن أي املٍ املئُ به هذا الفراغ المخيف الذي

خلّفهُ عندي غياب الأب؛ ذلك الرجل الوحيد والأوحد في الوجود الذي يتمنى ان يراك أفضل منه.

لقد انتهى كلُّ شيء. وبقيَ ذلك الأسى الغريب الذي لا يعرفه سوى كنّاسي المسرح بعد خروج آخر الممثلين.

غابرييل غارسيا ماركيز

الفصل الثالث: الحقيقةُ المرةُ

في اليوم الموالي وأذكر أنني لم أنم إلا لساعاتٍ قليلاتٍ معدوداتٍ. استيقظت على صوت المطرقة وصوت المكنسة الأرضية المصنوعة من الدوم. على ما يبدوا ان خالتي فوق السطح تصلحُ وتنظفُ الكوخ القديم، الذي كان يستعمل سابقاً لتربية الحمام. قامت خالتي منذ الصباح الباكر بتنظيفه وترتيبه، كنت أتساءل مع نفسي: هل سنعود لتربية الحمام من جديد؟ لقت انتباهي في الغرفةٍ وجودُ كيس الدقيقِ ازرقٌ اللّونِ وقد قامت خالتي بجمع كل أشيائي فيه، حينها أدركت مما لا يدع مجالاً للشك، انها ستكون آخر ليلة لي سأنام فيها هنا في هذا الطابق السفلي. لاحقا اكتشفت انه وبعد مفاوضات طاحنة بين خالتي وزوجها توصلوا الى هذه الحل الوسط، الذي أرضى كلا الطرفين على الأقل سأبقى هنا في نفس المنزل. لقد كانت صدمة حقيقية على نفسيتي، فلم اتقبل الأمر ابدا. كنت أطرح دائما السؤال على نفسي، لماذا يحدث لي هذا؟ لماذا انا بالذات دون غيري؟ هل حكم عليّ بالشقاء والمعاناة؟ إذا كان الامر كذلك فلماذا؟ ما الذي فعلته؟ ما هو ذنبي؟ أسئلة كثيرة لم أكن

أجد لها أي أجوبة شافية. أصبتُ حينها باكتئاب حاد. لقد أشفق كثيرا على الناس .أصبت بأمراض نفسية كثيرة الذين مثلي، عجزوا امام شخص فشل في اختبار تجاهل التفاصيل عدة مرات، التفاصيل تأزمني، فالآخرون لسوء حظي لا يعيرونا اهتماما، اما أنا فقد كنت أهتم أشد اهتمام بهذه التفاصيل، فمجرد كلمة أو حركة صغيرة كفيلة بقلب مزاجي لأيام. لقد اعتكفت في المنزل لمدة طويلة ودخلت في إضراب عن الطعام. كنت أخشى الحديث مع اصدقائي، فقد أصبحت ارى نفسي أقل قيمة منهم. خاصة عندما انتشر الخبر بين جميع، فالأخبار هنا تنتشر انتشار النار في الهشيم، فالقرية صغيرة. انني اعيش في السطح، داخل كوخ للحمام وانني بلا أم وأب حقيقين. كانت خالتي دائما ما تحاول الرفع من معنوياتي، محاولة باستماتة جعلي اتعايش مع هذه الحياة الجديدة، كانت دائما ما تردد: لا تقلق يا ابني، ستعتاد على المكان، انه مكان رائع، لن يزعجك أحد هنا. طبعا كنت أرى أن خالتي تحاول يائسة المسكينة تزييف الواقع، لكن بطريقة ما، اكتشفت ان كلامها كان على صواب. قبل هذا الحادث المرير، كنت أحب المعرفة والتعلم. كنت احصل دائما على الرتب الأولى في الابتدائي، يا إما الاول أو بين الخمسة الأوائل في أسوء احوالي. كانت خالتي دائما تشجعني وتقول لي يوما ما

ستصبح شخصا مهما في المجتمع. ستصبح دكتورا كبيرا ومعروفا في العالم كله. كنت اصدقها ببراءة مثلما يفعل أي طفل عادي وأقول لها بكل عزم "نعم ...نعم اكيد". لكن للأسف بعد الحادث تغير كل شيء، فبدأت بالانتقام من نفسي، فقد بدأ مستواي يضعف رويدا رويدا، حتى سرت من عوام التلاميذ، الذين لا يبالي بهم اي أحد، احصل دائما على معدل متوسط. لم أعد أتجرأ، حتى على طرح، تلك الأسئلة المختلفة التي كانت تميزني عن باقي زملائي. طبعا أستاذتي لاحظوا انني قد تغيرت للأسوأ، بل أحد الأساتذة الشباب ذهب لينبش عن سبب هذا التدهور وعندما عرف السبب حاول أن يساعدني، عن طريق عرض المشكلة للمناقشة، لكنه للأسف يا ليته لم يفعل هذا، فمثل هذه النقاشات كان من المفترض أن تناقش بيننا نحن الاثنان على انفراد. أما الآن فحتى زملائي الذين كانوا لا يعلمون بقصتي، أصبحوا على دراية مؤكدة بها الآن.

من يفتح باب مدرسة يغلق باب سجن.

فكتور هوجو

الحدث الثاني الذي أمقته كثيرا هو يوم انقطاعي عن الدراسة، لم أستطع نسيانه لبشاعته. فقد كان يوم وفاتي، لا تعتقدوا ان الوفاة هي فقط موت الجسد وخروج

الروح، لا وألف لا، فالموت قد يكون في أشكال مختلفة، فقد يموت شخوص في أعيننا رغم انهم أحياء يرزقون وقد تموت فينا رغبة متجذرة وقد يموت الشخص بمجرد ما أن يفقد معنى حياته. ما زلت أتذكر تفاصيل ذلك اليوم كلها حتى الآن. بالرغم من أني لا أحب تذكره، لأنني كلما تذكرته نزلت من عيني دمعة واحدة حارة، مثل جمرة حمراء، تنزل على خدي متوهجة، فتنساق مع عنقي، مصدرتا دويا هائلا، لوقعها صدى يتردد، كفيل بأن يجعلني كئيب لعدة أيام. سأحكي لك أيها القارئ القصة بعجالة قدر المستطاع. لقد كنت مثل كل الشباب في سن المراهقة، شاب حالم لا حدود لأحلامه، نشيط لا شيء يقف في طريقه، كنت معجبا بفتاة اسمها ليلى، لم تكن في عيني مثل بقية الفتيات الأخريات، لقد كانت ذكية وجميلة جدا. كم ليلة هجرني فيها النوم وبقت صورة ليلى في قلبي، كم من حلم وردي رسمته وليلى هي ربة بيتي، صحيح انني كنت اعرف اننا لسنا من نفس الطبقة الاجتماعية، لكن كنت أشعر انه يمكننا كسر هذا العائق الغبي، لقد كانت ليلى ابنت موظف، لا أعرف اي منصب يشغل بالضبط، لكن سبق لي أن رأيته عدة مرات وهو يوصل ابنته إلى الاعدادية، كانت ليلى انيقة جدا في كل تفاصيلها، حتى في تناسق ألوان ثيابها. لم إجراء أو أتجرء في يوم من الأيام الى التحدث معها. بل

لا أذكر أن عيني قد التقت بعينها مرة من المرات، فقط كنت اختلس النضرات من بعيد. في يوم من ايام فصل الربيع، حيث تكثر زقزقة العصافير وتتنوع ألوان وانواع الزهور، ويصبح الجوّ جميلا معتدلا، وتبنى الاحلام ويحلوا المزاج. أذكر جيدا انه كان آخر يوم في الأسد الأول من الموسم الدراسي، مما يعني اننا مقبلون على العطلة، كنت أكره العطلة، كيف لي أرى حبيبتي ليلى لمدة خمسة عشر يوما. في متاهة هذا الجو البهيج والمزاج الحلو الممزوج بفكرة الاشتياق، قررت أن أصارح ليلى بمشاعري اتجاهها، من يدري قد أصبح أنا روميو وقد تصبح هي جولييت، وقد ينتصر الحب على كل الشرور، في الحقيقة أنا كنت اريد المصالحة مع نفسي قبل كل شيء. كنت اريد أن اصير انسانا اخر، كنت اريد ان يعلم الجميع انني أعيش في السطح وانني بلا أم واب ومع ذلك أستطيع ان اقول ها أنا ذا، بلا خجل ولا خوف من كلام الآخرين. استجمعت قواي النفسية وحاولت إخفاء توتري قدر المستطاع، ونويت التحدث إليها وان اصارحها بإعجابي الشديد بها. لقد ارتديت أجمل الثياب التي املك، مما اعطاني ثقة زائدة في نفسي. لقد كانت ليلى جالسة مع صديقاتها في ساحة الإعدادية. ألقيت عليهن التحية كما يفعل أي "جنتلمان" بالرغم من ان التوتر كان واضح عليا، إلا أنني أكملت

حديثي بكل ثقة. ثم أردفت قائلا ليلى هل تسمحين لي اريدك في كلمة. كان الجميع مستغرب من بينهم أنا، أذكر أن نبرة صوتي قد تغيرت أو ربما خيل ذلك إلي. نهضت ليلى من مكانها ثم ابتعدنا بضع أمتار عن مجمع صديقاتها. حاولت أن أكون لطيفا معها قدر المستطاع وقلت لها اسف على هذه الطريقة الغريبة. قالت: لا بأس، ماذا تريد؟ كنت اريد ان يصبح الحديث معها أطول قليلا، لكن على ما يبدو أنها منزعجة لسبب ما، لهذا دخلت معها مباشرة في الموضوع. ليلى انا معجب بك كثيرا. لم تقل شيء فقط بدأت تنظر إلى حذائي. شعرت بالخجل فقد كان حذائي مثقوب، حسنا كان ثقب صغير يكاد لا يرى لكنها تملك عينان زرقا وتين قادرتان على ملاحظة أدق التفاصيل. اه، التفاصيل من جديد، أكره التفاصيل. صاح صوت حاد في أعماقي، لا يسمعه أحد غيري، يصرخ محاولا تعنيف ليلى: أيتها الحقيرة، انظري الى عيناي لتعرفي مدى صدق نيتي، ومقدار حبي لكي، وليس إلى حذائي المرقع. قهقهة بصوت عال ومتعالي وسخرت مني قائلة بنبرة صوت تميزها الثقة في النفس، لكي تسمع لصديقاتها: ماذا تظن نفسك أيها الحثالة؟ تحدث لكي اسمعك لماذا صمتت؟ سمعت صديقاتها يهمسن: انه هو .... نعم هو الذي يعيش فوق السطح في كوخ الحمام، ابوه طرده... لا انه

ليس ابوه الحقيقي فأبوه الحقيقي قد تخل عنه قبل حتى أن يولد. لم أعد أستطيع تحمل كل هذا، لقد كان كابوسا، كابوس حقيقي، لقد تعرضت للاحتقار، تمنيت في هذه اللحظة أن تنشق الأرض وتبلعني. لم أشعر بنفسي حتى وجدتني مهرولا والدمع محبوس في عيني. لم أجد مكانا اقصده غير وادي تامدا، جلست هناك وحيدا، بكيت كثيرا، نظرت إلى حدائي فخيل لي هو الآخر يبكي، لا أدري لماذا لم أركز في تفاصيل حذائي من قبل، لقد كان لونه ازرق، لكن أنا كنت المعه باللون الاسود، لقد اشتريته قبل ثمانية أشهر من السوق بثمن بخس لأنه كان معلول، لم اكترث لتلك العلة بالنسبة لي كان ثقب صغير لن يغير اي شيء لكن كان كفيل بخفض ثمنه كثيرا، عندما أطلت التأمل في حذائي بدى لي كأنه حزين تماما مثلي، فخاطبته كالمجنون: لا عليك يا حذائي. فأنت لست مذنب، ولست مسؤول عن الذي حدث، يجب أن تعلم يا حذائي أن هناك أناس في هذه الحياة يهتمون بالمظاهر أكثر من اهتمامهم بالجوهر، أشفق كثيرا عليهم يا حذائي فهم لا يعرفون أن الشكل سهل تغييره متى ما توفر المال وأن الجوهر الحميد كنز ثمين لا يبلى مهمي تعاقبت قساوة الأيام والشهور والسنين الطويلة. صحيح انني لم اتوقع ردت فعل ليلى تلك، فقد كنت اتخيلها لغبائي أو ربما لحسن نيتي مثل الملاك الطاهر، الذي سيقدم لي يده

للمساعدة. منذ هذا الحادث الأليم الذي خلف في نفسيتي طبقات من الجروح والآلام، قررت ألا اذهب الى المدرسة بعد اليوم، ربما عقابا لنفسي او لإثبات شيء ما. فالمدرسة لم توجد للأشخاص أمثالي الذين لا يملكون حذاء جيدا غير مثقوب. كان ذلك آخر يوم لي اذهب فيه للإعدادية. حاولت خالتي نهي عن الفكرة لكنها لم تنجح. فقد كنت عنيدا جدا. اما زوج خالتي، فقد كان سعيدا جدا، لأنه وجد اخيرا، عاملا يشتغل عنده في حقله دون مقابل. لقد تكونت لدي عقدة المدرسة فكرهة كل شيء له علاقة بالدراسة. لدرجة أنني لم أعد أطيق المرور من الطريق التي تمر امام الاعدادية، عندما كنت اذهب الى المدينة. انعزلت أكثر وأكثر عن المجتمع، ما هي إلا شهور حتى تعودت على الحياة الجديدة، حياة الحزن، الوحدانية، التيه. لقد أصبحت الدراسة بالنسبة لي شيء ميت من الماضي، اما الحاضر فكان هو العمل في حقل زوج خالتي. كنت اعمل يوميا تقريبا. اليوم الذي كنت لا اعمل فيه، كنت اقضيه في التسكع مع ابناء القرية الذين كانوا تقريبا من نفس عمري وعندما تغرب الشمس كنا عادة ما نجتمع في أعلى التلة، نشعل النار لتدفئ بحرارتها، فقد كانت تخلق جوا رومانسيا أخاذ، فكنا نجلس لنتبادل أطراف الحديث ونغني ونرقص في بعض الأحيان. كانت المتعة في مثل هذه الجلسات لا توصف.

لا بد على كل إنسان أن يجد ولو صديق واحد يتبادل معه الكلام.

لم أكن أشعر بالرضى عن وضعي الحالي كلما ازددت في العمر. فحالتي الصحية أصبحت تتدهور بسبب الاعمال الشاقة بل حتى النفسية لم تسلم، ففكرة انني وحيد، ليس لدي أحد غير خالتي كانت قاسية. غدا ستكون خالتي، عندها يطارد من المنزل، اي سأعيش عندها؟ ربما سأبني كونا في وادي تامدا فهو المكان الوحيد الذي يستقبلني كلما ضاقت عليّ الايام، لكن أنا لا أريد أن أعيش هذه الحياة، فأنا لم أخلق لأكون مجنونا. في سهرة من السهرات مع أبناء الدوار، دار نقاش بينهم جذبت إليه، مثلما يجذب المغناطيس الحديد. قال أحدهم: -افكر في الهجرة إلى المدينة، فلا أرى اي مستقبل لي هنا في القرية. رد عليه أحدهم ساخرا منه: بل قل إلى بلاد الأنوار، أما المدينة فحالها أسوء من حال الدوار بكثير. قال آخر: كلنا نفكر في الهجرة، فلا مستقبل لنا هنا في هذه البلاد السعيدة، هنا عندنا فقط العذاب، انظروا إلى ابي مثلا، حياته كلها و هو يعمل في الحقل، المسكين لم يستطع توفير حتى مبلغ صغير، لم يشتري لا منزل و لا سيارة، بل بالمقابل خسر اهم شيء يملكه الإنسان.. صحته. لم يستطع المسكين شراء حتى دراجة نارية يركبها. شاب آخر قاطعه قائلا: ابن عمي ذهب

إلى ايطاليا قبل سنتين فقط وقد عاد الينا بسيارة رائعة وأرسل امه إلى العمرة. نطق شاب آخر: انا ايضا اريد الهجرة، لكن أمي باتت عجوز، لمن سأتركها خلفي؟ أنا الابن الوحيد؟ آه لولا الظروف التي انت عكس ما أشتهي، لما بقيت هنا ثانية واحدة.

لقد كنت استمع إليهم بتأني لربما وجدت العصى السحرية، لكي أغير بها حياتي. كأنني وجدت القطعة الضائعة لتشكيل صورة مكتملة في لعبة البوزل. فلربما تحسنت اوضاعي اذ ما هاجرت إلى الخارج، اما إذا بقيت هنا فغالبا لن اتقدم أبدا بل حالتي ستسوء أكثر مما هي سيئة الآن. كيف يقومون بالهجرة ومن اين يا رفاق؟ قال لي أحدهم من مدينة طنجة، يقومون بالتسلل الى إحدى السفن التجارية التي ترسو في الميناء وعندما تعود السفينة إلى أوروبا يكون المتسلل قد وصل إلى مبتغاه. انسحبت من الجلسة وانطلقت إلى البيت، لكن سلكت هذه المرة الطريق طويلا، طوال الطريق وانا أفكر في هذه الفكرة. لماذا لا أجرب حظي فليس لدي شيء لأخسره؟

مهما ذهب الإنسان إلى بلدٍ آخر غير بلده الأم بغض النظر عن الزواج أو الدراسة. فلن يشعر بالراحة والانتماء لهذا المكان مهما حاول أن يبدي من المشاعر

لذلك المكان. يحن لتراب الوطن ولا بدّ له أن يعود لذلك الوطن في يوم من الأيام.

بنانا يوشيموتو

من غير المجدي إلى أين سيأخذك الطريق، فكر بالخطوة الأولى فقط، والبقية ستأتي.

الشمس التبريزي

الفصل الرابع: لا رجوعَ الى الوراء

لقد مرّ شهرين كاملين على هذه الجلسة، التي قلبتني رأسا على عقب. لقد كنت طيلة الشهرين الماضيين مشغول البال، أفكر فقط، أفكر في فكرة الهجرة والمستقبل الزاهر الذي ينتظرني هناك، أفكر في حياتي الجديدة. حتى خالتي لاحظت انني أصبحت مشغول البال، ولست على عادتي. فكانت تسألني: ما بك يا بني؟ تبدو لي مشوش الفكر، سارح في الخيال هذه الأيام، أتريد شراء سروال جديد؟ هاه... قلي لا تخجل مني، انا مثل أمك. كنت ابتسم وأقبل رأسها كالعادة ثم أطمئنها." كلا يا خالتي فلدي ما يكفي من الثياب." لا أعتقد أنها تستطيع فهم فكرة أن الفراغ الوجداني الذي يحس به الإنسان يتجاوز كل الماديات. لقد ترددت كثيرا في إخبارها بالفكرة، لكن في النهاية قررت ان أخبرها ففي الحقيقة ليس لدي أحد غيرها لأخبره. أخبرتها بأنني قد قررت أن اهاجر إلى أوروبا. صمتت طويلا ولم تعلق على الموضوع، من الواضح انها كانت صدمة كبيرة لها. كان من الواضح من خلال ملامح وجهها، ان الفكرة لم ترق لها في البداية، حاولت أن أشرح لها ايجابيات هذه الهجرة التي لا تعد ولا تحصى، وعندما عرفت انني مصر للغاية على الذهاب، قالت لي: فقط

فكر جيدا قبل أن تخطوا اي خطوة. شاهدت الدموع تنزل من عينيها في محاولة فاشلة منها لإخفائها. شعرت بالحزن الشديد وبالفرح في نفس الوقت، أخيرا أصبح لدي هدف في الحياة. منظر خالتي وهي تبكي أربكني، فحاولت أن اخفف عنها، اووه! لماذا الدموع الآن يا خالتي؟ فيجب أن تكوني سعيدة لأجلي، فسأعود من أوروبا بعد سنتين أو ثلاثة سنوات كأبعد تقدير بسيارة جميلة وستجلسين معي في الكرسي الأول، وسنزور معا أماكن جميلة كالبحر الذي لم تريه في حياتك، كما أنني سأشتري لك ألذ انواع الشكولاتة. قبل أن أكمل كلماتي هذه عانقتني بشدة وقالت لي: لا أريد اي شيء من الذي ذكرته، فكل ما اريده هو فقط أن تكون سعيدا في حياتك، انتظر دقيقة. نزلت إلى الطابق السفلي، ما هي إلا دقائق حتى عادت إلى وبحوزتها صندوق خشبي صغير الحجم، احمر اللون. كنت غارقا في استغرابي، ما هذا الصندوق الغريب، فلم يسبق لي رأيته. بدأت عيونها تفيض بالدموع. قبل أن أسألها عن ماهية هذا الصندوق؟ قالت لي هذا هو الشيء الوحيد الذي تبقى لي من المرحومة أمك. تمتمت في حيرة من أمري، متمتما امي... امي. ثم ابتسمت محاولا إخفاء توتري، انت هي امي يا خالتي، ابتسمت وقالت: " أيا يكن يا بني. ففي هذا الصندوق يوجد خاتم أمك، فقد احتفظت لك به طيلة هذه

السنوات. تلبية لرغب المرحومة. والآن هو ملكك يمكن بيعه والاحتفاظ بالنقود، ستكون بحاجة إليها الآن أكثر من أي وقت مضى. شعرت برغبة في الحصول على بعض المعلومات عن أمي فخالتي هي المصدر الموثوق الوحيد الذي يعرف امي جيدا، فمن يدري قد تكون هذه المرة الأخيرة التي أراها فيها، فتموت كل الذكريات والقصص عن امي مع وفاتها للأبد. قلت لها في شوق، أخبريني يا خالتي شيء ما عن امي، لزمت خالتي الصمت لوقت طويل، ثم قالت: هل تريد ان تعرف حقا ماذا قالت أمك عند ولادتك؟ قلت لها بشوق: نعم نعم. قالت حسنا: فأنت الان راشد ويجب ان تعرف القليل من الحوارات والذكريات المخزنة في ذاكرتي مع المرحومة. قالت لي في الحقيقة أمك لم تكن سعيدة عند قدومك للحياة. وقعت هذه الكلمات عليّ كصخرة ضخمة منعتني من التنفس، تجمدت في مكاني وانا مصدوم من قساوة الحقيقة، قلت لها أكملي أرجوك، قلت في نفسي لعل هناك شيء ما لم افهمه. اكملت حديثها وهي تتأمل في شرود الصندوق الأحمر: كانت أمك تتمنى ان تزداد ميتاً وعندما صرخت أول صرخة لك في الوجود، بكت كثيرا وقالت انا لا اريدك ان تشقى يا ابني، فالحياة بئيسة وحقيرة وغير عادلة خاصة في مجتمعنا هذا المملوء بالنفاق والعهر والقوادة، اسوء خطأ قمت به في حياتي

هو أنني أنجبتك، لا أريدك يا قطعة اللحم أن تعيش حياة اليتم و الذل، اكبر جريمة قمت بها، هي انني اتيت بروح طاهرة، بريئة إلى هذا الوجود المليء بالشر، بعدما كانت مطمئنة في بحر العدم. لقد أصبت بالذهول من الذي سمعته، قبلت رأس خالتي، كإيحاء مني، لكي تتوقف عن الكلام، فلم أعد أطيق سماع هذه الحقيقة المرة، فغصت داخل فراشي، والدمع محبوس في عيني. انصرفت خالتي من البراكة وبقيت وحدي فقط وحدي اتلمس بأصابعي نقوش هذا الصندوق الصغير الاحمر في ظلمة، لم أستطع تجاهل التفكير في كلام امي الذي نقلته لي خالتي ويا ليتها لم تفعل، يا ليتني لم اسمع هذا الكلام.

"هذا ما جناه عليّ أبي... وما جنيت على أحد"

ابو العلاء المعري

في التراجيديا الإغريقية الشهيرة التي كتبها سوفوكليس (496 - 406 ق.م) تحت عنوان "أوديب في كولونا"، يقول الروائي المأساوي المسرحي الشهير "عدم الوجود، أيها الرجل، لهو الكلمة الأسمى، الكلمة الأعظم". حتى هوميروس، صاحب الملحمتين الإغريقيتين الإلياذة والأوديسة، أجاب عندما سئل "ما الأفضل للإنسان؟" بالقول "الأفضل هو ألا يُخلق، وإن فشل في ذلك،

فالأفضل له أن يمر بأسرع ما يمكنه عبر بوابات هاديس (ملك العالم السفلي/ عالم الموتى)". وقد شاركه في هذا الموقف الفيلسوف اليوناني أرسطو طاليس في قوله الشهير "أفضل شيء بالنسبة للبشر ألا يولدوا، وألا يكونوا في هذا العالم. إنه الخيار الأفضل إن كان متاحاً، أما الخيار المفضل الثاني إذا حدث وولد أحدهم فهو أن يموت بأسرع ما يمكن". وعند ذكر الفلسفة اللاإنجابية، يحفظ التاريخ للشاعر العربي "أبو العلاء المعري" القول الذي أوصى أن ينقش على شاهد قبره "هذا ما جناه عليّ أبي وما جنيت على أحد"، كتعبير عن حياة تعذب فيها بعدما ولد، بينما وفر على غيره قسوتها. وقد انتقد المعري الإنجاب في مناسبات عدة، كان من بينها حين قال "الإنجاب هو عقد إيجار غاب فيه التراضي، فالأجير لم يبلغ ولم يحضر، وهذا غبن". وبين هؤلاء كان التاريخ قد شهد عدداً من المجموعات التي اعتبرت اللاإنجاب انتقاماً من إله شرير غاضب، وبينها جماعات مسيحية مثنوية مبكرة كالمرقيونية، في العام 144م، التي رأت في الإله العبري إلهاً شريراً حقوداً ولا يجوز مده بالأولاد الجدد، فيما دعوا إلى ترك عالمه. وإن اتخذت هذه الفلسفة سابقاً بعداً عدمياً، فيه الكثير من التشاؤم، إلا أنها تطورت لاحقاً على يد فلاسفة ومفكرين كثر رأوا فيها، كنوع من التعاطف المسبق، ضرورة

متزايدة في عالم لم يعد يحتاج لمخلوقات جديدة تعاني فيه. اليوم، تحول شعور الشفقة على الأطفال القادمين، والدعوة لتوفير هذا الظلم عليهم، إلى أسلوب حياة بدأ يتوسع حول العالم ويجد من يتبعه ومن يروج له.

استيقظت هذا الصباح اتصبب عرقا، لقد زارتني روح امي في المنام. تساءلت مع نفسي، لماذا كل هذا الغياب؟ لماذا لم تزورني قبل الآن يا أمي، كم بكيت من ليالي عندما كنت طفلا، كم توسلت للإله أن أراك ولو لثانية واحدة؟ لماذا الآن بالذات؟ ربما لهذا الصندوق الأحمر العجيب سحرا من نوع ما، أنا حقاً لا أدري. لقد كان حلما مرعبا، رأيت كيف شنقت أمي نفسها على شجرة الزيتون، دققت في التفاصيل في الملامح، سرت في الطرقات، شاهدت الخمس دقائق الأولى قبل ربط عنقها النحيف في حبل متآكل أزرق، لقد بكت المسكينة كثيرا، لقد شتمت الحياة ومدبرها، ثم حملت الحبل بيديها، تأملته طويلا وضحكت كالمجنونة، كانت سعيدة للغاية، وضعت الحبل على عنقها بإتقان مثلما تضع السيدات الارستقراطيات اطواق الذهب على عنوقهن عند الذهاب الى الحفلات. ثم ألقت بثقلها الخفيف على الحبل، بلا أي مقاومة، ثم اختفت البسمة التي كانت مرسومة على وجهها رويداً رويداً. لقد شعرت ان المسكينة قد عادت إلى البيئة التي تنتمي اليها، بيئة الملائكة والسكون، حيث

لا وجود للشر نهائياً، وداعا أيتها الحياة الحقيرة، انقطع تنفسها وانقطعت هي عن الوجود. استيقظت في الصباح وكلي عرقٌ لم أنم جيدا البتة، سألت خالتي عن حقيقة وفاة أمي، فأكدة لي جميع التفاصيل التي رأيتها في الحلم. بقيت معلقة على شجرة الزيتون الليل كله، إلى أن حل الصباح فراها فلاح حاول أن يعتقها يعدما اكتشف أن قلبها ما يزال ينبض فأخذتها للمستشفى على ضهر دابة بقية هناك ليومين متتالين وعندما استعادة وعيها حزنت وبكة كثيرا، ثم قالت قولتها التي أسقطة الطبيب على ركبتيه من شدة البكاء: حتى انت أيها العدم لا تريدني. بلعت خلسة عشرات حبات الدواء لتضع حدا لحياتها فاستقبلها العدم هذه المرة بصدر رحب. لقد سمعت هذه القصة عدة مرات وأنا صغير لكن لم يسبق لي أن تجرأت قبل هذه اللحظة على التفكير في المسألة، فقد كنا نردد دائما أن امي ماتت شهيدة بسبب مرض خبيث. من سيتجرأ على قول إنها ماتت منتحرة والجميع يعلم أن المنتحر يدخل الجحيم. كان جدي من أمي شيخ القبيلة ذو منصب وهبة كبيران، لم تكن له إلا بنتان اثنتان فقط، هما خالتي وأمي، خالتي لم تدرس قط اما أمي فكانت متعلمة درست في إحدى البعثات الفرنسية، بعد وفاة ابوهما، وقعت عدة مشاكل عائلية، خسر ابنهما كل ثروته، فتشردت بنتاه الوحيدتان، فتزوجت خالتي،

وبقيت امي تعمل هنا وهناك، فحبلت بي بعدما وعدتها رب عملها بالزواج، لقد هرب وتركها تصارع المجتمع الذي لا يرحم احدا، الأصابع تشار إليها أينما ذهبت، انها الزانية، تتعرض لكل أنواع العنف، الكل يريد نهش لحمها، كانت تصرخ في ظلمات الليل متسائلة: وما ذنب فتاة ذنبها الوحيد انها كانت صادقة وساذجة؟ لكن كان الصدى هو الجواب الذي تتلقاه، هكذا كبر ثقل بطنها، وكبر معه ألم ومعاناة.

في اليوم الموالي ذهبت إلى السوق، أسأل الأشخاص الذي يبيعون المجوهرات. أريد ان اتخلص من هذه القطعة التي ارتبطت بفكرة انني لست مرغوبا فيه. أحد البائعين أخبرني بأن هذا الخاتم لا قيمة مادية له، بائع آخر قال لي انه مستعد أن يدفع لي مئتي درهم مقابلا له. فقررت على الفور أن ابيعه له دون تردد، فأنا بحاجة إلى المال لكي أبدأ رحلتي، أريد الهروب عاجلا. اخذت المائتي درهم وضعتها في جيبي وانطلقت سعيدا، اشكر الله الذي أرسل لي هذه الهدية من السماء، اما أمي فلم أعرف ما الموقف الذي ستأخذه بشأنها، فعلقة الحكم عليها إلى حين.

الفصل الخامس: البحثُ عن نفسي

عدت إلى المنزل وتعمدت ألا أخبر أحدا عن خطتي، فأنا لست ممن يحبون طقوس الوداع. لم أخبر حتى خالتي عن موعد الانطلاق بالضبط. لبست أفضل ما لدي من ملابس وحرصت أن البس السميكة المتينة منها. الساعة الآن تشير إلى الخامسة صباحا. جمعت في حقيبتي كل ما اعتقدت انه ضروري. ثم نزلت من على السلم في هدوء مثلما يفعل سارق متسلل. وقفت على الطريق وبدأت الوح بيدي لأي سيارة تمر أمامي، لعلي أجد أحد السيارات ذاهبة الى وجدة، فاذهب معها مجانا، وإن لم أجد سأضطر للذهاب في التاكسي، لكن هذا مكلف، وميزانيتي ضعيفة تستلزم مني الاقتصاد قدر الإمكان. أخيرا توقفت لي إحدى السيارات، سألت للسائق: هل انت ذاهب الى وجدة؟ هل توصلني في طريقك، كان السائق رجل طاعن في السن ذو لحية بيضاء ويضع نظارات سوداء ورزة فوق رأسه خاطبني: نعم يا بني اركب. ركبت معه فلم يكف عن الحديث طيلة الطريقة، يمكن تلخيص حديثه كله في فكرة واحدة، وهي أن الدوار في حاجة لسكانه، فلا ترحلوا جميعكم للمدينة، كان متشبع بالفكر الأصولي. كنت أردد طيلة الطريق، نعم. نعم صحيح، فليست لدي أي رغبة في الخوض في

هذا الحديث، الذي سئمت منه. كان كل تفكري في المحطة، فالوجهة هي طنجة. لم أشعر بالحزن ابدا فقد لفراق الدوار، كنت لا مبالي إلى درجة مخيفة. بالرغم من كونها اول مرة اسافر فيها إلى مدينة بعيدة. وصلنا الى المحطة أخيرا، لقد كانت مليئة بالحركة، هناك البائعين المتجولين والمسافرين. وأشخاص آخرين يسألونك بغير اهتمام: اين ذاهب؟ في البداية اعتقدت انهم المخزن، كنت أجيبهم الى طنجة. فيقولون لي: لا ثم يذهبون بلا اي تعليق. بقيت على هذه الحال حتى صادفت أحدهم ينادي بأعلى صوته: طنجة العالية هنا طنجة هنا. ذهبت إليه مسرعا. سألته بكاريزما مصطنعة كأنني معتاد على السفر: كم وصل ثمن التذكرة هذه المرة؟ قال لي مئة وخمسين درهما. آه حسنا، تفضل أعطيت له المائتي درهم التي حصلت عليها مقابل الخاتم ثم أعاد لي الخمسين درهماً، امسكت التذكرة ثم خبأتها في جوربي جيدا، ثم صعدت الى الحافلة. جلست في الكراسي الطويلة الموجودة في الأخيرة. وبدأت انتظر أن تمتلئ الحافلة. مرت ساعة طويلة من الانتظار الى ان امتلأت الحافلة أخيرا وبدأت بالمسير. شعرت برغبةٍ كبيرةٍ في النوم لكنني قاومتها بكل ما أوتيت من قوة. كانت الحافلة تتوقف في كل مدينة جديدة نصل إليها. مع كل توقف كانت تنبعث رائحة الشواء الزكية، كنت اكبح

شهيتي كعادتي فالمال الذي بحوزتي يكاد يكفيني للضروريات. ماذا عساي أن أفعل غير أن اكتفي بشم دخلت الشواء إلى أن أشبع.

بعد ثمانية ساعات من المعاناة داخل حافلة اشبه بفرن متنقل. الحمد لله، لقد وصلت بسلامة، بالرغم من انني قد عانيت الامرين في الحافلة، فقد شعرت بدوار الرأس، فكنت استرجع مصاريني في كل محطة توقف نصل إليها إلى أن أعطتني سيدة عجوز كيس بلاستيكي لاسترجع فيه إن اقتضت الضرورة. فأنا لست متعود على ركوب الحافلات، خاصة حافلات المغرب المهترئة.

صباح الخير أيها النهاريون.
صباح الخير يا طنجة المنغرسة في زمن زئبقي..
ها أنذا أعود لأجوس كالسائر نائماً عبر الأزقة والذكريات، عبر ما خططته عن حياتي الماضية الحاضرة، كلمات واستلهامات الندوب لا يلهمها القول، أين عمري من هذا النسَج الكلامي؟ لكن عبير الأماسي والليالي المكتظة بالتوجّس واندفاع المغامرة يتسلل إلى داخلي لكي يعيد رماد الجمرات غُلالة شفافة آسرةً، لقد علمتني الحياة أن أنتظر أن أعيَ لعبة الزمن بدون أن أتنازل عن عمق ما استحصدته، قل كلمتك قبل أن تموت فإنها ستعرف حتماً طريقها، لا يهم ما ستؤول إليه، الأهم

هو أن تُشعل عاطفة أو حزناً أو نزوة غافية، أن تشعل لهيباً في المناطق اليباب الموات، فيا أيها الليليون والنهاريون.. أيها المتشائمون والمتفائلون.. أيها المتمردون.. أيها المراهقون.. أيها العقلاء لا تنسوا.. لا تنسوا أن لعبة الزمن أقوى منا، لعبة مميتة، لا يمكن أن نواجهها إلا بأن نعيش الموت السابق لموتنا بإماتتنا أن نرقص على حبال المخاطرة نشداناً للحياة،

أقول: يخرج الحي من الميت،
يخرج الحي من النتن والمتحلل،
يخرجه من المثخن والمنهار،
يخرجه من بطون الجائعين ومن صلب المتعيّشين على الخبز الحاف.

محمد شكري، الخبز الحافي

بدء الركاب بالنزول الواحد تلو الآخر. لقد كنت الوحيد المتردد في النزول، لأنني ببساطة لا وجهة محددة لي. لقد وصلت، لكن لا أعرف إلى أين. عزمت على ان اتصرف كإنسان عادي، لكي لا اثير شكوك الناس من حولي، فلربما اكتشفوا انني شخص غريب و اتعرض للسرقة. لكن على ما يبدو أن الجميع هنا مشغولون بأنفسهم فقط، ووجودي من عدمه ليس له أي أهمية. كنت وما زلت أتساءل مع نفسي؛ لماذا نحن المغاربة

حذرين للغاية من كل شيء ومن لا شيء؟ من الصعب للغاية أن نثق في الآخرين. شعرت بيد وخزتني خلف كتفي. استدرت متعجبا ومستغربا. فإذا بشاب اسمر البشرة يرتدي ملابس انيقة ونظيفة، كان لا يتقن جيدا العربية، فلا شك انه من المهاجرين الافارقة المقيمين في المغرب. عانقني وهو يردد: كيف كانت الرحلة يا صاح؟ أجبته كالأبله وأنا ابتسم: الحمد لله على أية حال فقد وصلنا بخير. اقترب من اذني وهمس فيها: تريد الهجرة إلى أوروبا يا صاحبي؟ لم اتردد في الجواب: نعم نعم صحيح. قال لي بثقة عالية: إنك انسان محظوظ أتدري لماذا؟ قلت لا لماذا؟ قال: "لأنك التقيت بي في هذا الوقت، فأنا أقدم هذه الخدمة، لقد أرسلت البارحة أكثر من عشرين شخص الى اوروبا، الحمد لله كل الأشخاص الذين تعاملت معهم وصلوا سالمين لأوروبا الحمد الله. كان وهو يحدثني يحمل في يده هاتف خلوي، اعتذر لي وبدا بالحديث في الهاتف مع شخص على ما يبدوا أنه يتكلم الاسبانية، في كل مرة كان يردد بالدارجة المغربية: "مزيان الحمدلله وصلوا بخير على سلامتهم". لقد تحمست جدا، وتأكدت انني فعلا محظوظ، وبدأت ارسم الاحلام الزهرية واتخيل انني فعلا عبرت إلى الضفة الأخرى، حيث الحياة السعيدة. قاطع الشاب الأسمر أحلامي بسؤاله: لكن كم معك من المال؟ قلت له

بكل صراحة معي مئة وخمسين درهما. صاح في توتر: "مئة وخمسون فقط؟ انها غير كافية! لكن لأنك محظوظ فسأقبل منك المئة وخمسين درهم تلك، لكن لا تنساني من صالح دعائك. لقد شعرت بسعادة غامرة وشكرت الله على ذلك، لعل الحظ قد ابتسم أخيراً. اخرجت المئة وخمسين درهماً، التي كنت قد خبأتها جيدا في جوربي وضعت مئة درهم في فردة و الخمسين درهم في فردة أخرى، كل المغاربة يقومون بهذه بخطة حتى اذا فقدت احد المبالغ لسبب ما سيقي عندي المبلغ الثاني. ناولت المبلغ له، تأكد من انها اصلية ووضعها في جيبه، وطلب مني أن أجلس على مقعد وانتظره، وألا أتحرك من مكاني وسيعود لاصطحابي إلى مكان المبيت. لقد مرة ثلاثين دقيقة ولا أثر له. بدأت الشكوك تحوم حولي. نهضت من مكاني محاولا البحث عنه لعلي اجده. لكن دون جدوى، كأن الأرض قد ابتلعته. حينها تيقنت للأسف انه قد تم النصب علي. اه كم كنت غبيا وساذجا. كان واضحا منذ البداية انه نصاب. لكن كما يقول المثل الطّمع يعمي الأعين.

كنت أعتقد أنني الأحمق الوحيد الذي تم النصب عليه في رحاب هذه المحطة الطرقية. حتى سمعت صوت رجل عجوز ينادي: "يا ابني ... يا ابني ..." صحيح انني سمعته، لكن لم أرد الالتفات اليه. لأنني كنت متأكد من

انني في جميع الأحوال لست أنا هو المقصود، فلا أحد يعرفني هنا. لكن لأني شخص فضولي جدا. توقفت واستدرت إليه، فقط لكي أرى ملامح هذا المنادي. لكن تفاجأت عندما أشار إلى بسبابته فقد كنت محقا أنا هو المقصود. خاطبني قائلا: -هل رأيت يا بني، رجل إفريقي، لقد كان هنا قبل قليل؟ قلت له بسخرية وبعفوية أيضاً كلا فأنا أيضا ابحث عنه. – تمتم العجوز والغضب بادٍ على وجهه: "هل انت أيضا...؟ - قلت له: نعم ابن الكلب لقد نصب علينا نحن الاثنان، على ما يبدوا، ربما هناك ضحايا آخرين غيرنا، من يدري! تفحصت مظهر هذا العجوز، فقد كان سرواله الابيض، قد صار بني من كثرة الأوساخ. اما جسمه فقد كان هزيلا جدا، لدرجة أنه خيّل اليّ، مثل هيكل عظمي متحرك، وشعره الابيض كان طويل جدا، مما يدل على أنه لم يزر حلاقا منذ مدة طويلة. يبدو أن حالته المادية اسوء بكثير من حالتي، أو على الأقل يبدو أنه هنا متشرد في مدينة طنجة لشهور طويلة وربما لأعوام. تساءلت مع نفسي لوهلة، هل يا ترى مصيره هو مصيري؟ هل من الممكن أن أصبح انا الآخر مثله؟ مجرد متشرد هنا، متسخ، هل يمكن أن ينتهي بيا المطاف هنا؟ شعرت بانقباض شديد في صدري فتجاهلت وحاولت طرد هذه الأفكار السيئة من ذهني.

خاطبتني في مونولوج داخلي بئيس: لماذا كل هذا التفكير السلبي؟ فما يزال أمامك الكثر من الأشياء الجميلة لتحققها. فلقد نزلت لتوك من الحافلة. إن طنجة سعيدة بقدومك، فيجب عليك ان تتفاءل وأن تبادلها السعادة. ففي جميع الأحوال ومهما كانت الحياة هنا في طنجة فإنها ستكون أفضل بكثير من تلك التي كنت تعيشها هناك في الدوار، حيث التيه وضياع البوصلة. أنهيت المونولوج الداخلي بتنهيدة خارجية فشعرت بتحسن قليلاً. لا أستطيع ان أنكر أبداً انني شعرت بالرهبة، فالرهبة هي أشد بؤساً من الخوف، فالرهبة هي الخوف، لكنه خوف بدون معرفة مصدره وسببه. إن الإنسان بطبعه يفضل كل ما هو مألوف ويخاف من كل ما هو جديد عليه، شعرت ايضا بخيبة الامل، تماما مثلما يشعر أي انسان تم النصب عليه في ثروته الكاملة. حسناً صحيح هو مبلغ صغير، لكنهُ على أيةِ حال كل ما كنت أملكهُ، لقد كان كل ثروتي، التي كانت من المفترض أن تشعرني ولو بالقليل من الدفء، ريثما اتسلل خِلستاً لإحدى السفن. في الحقيقة ولكي أصدقكم القول، فليس حادث النصب الذي تعرضت له، هو السبب الوحيد لرهبتي، فما يشعرني بالحزن في الحقيقة هو هروبي الماكر. أشعر بأنني ماكِر، لا أدري هل هي صفة حميدةٌ ام قبيحةٌ، لكنها في جميع الأحوال من صفات الله، كما

أنني أعتقد أنه لا يوجد أي انسانٍ في هذا الوجود غير ماكر. فالمُكرُ ليس شراً بالمطلق بل هو التعبير الوسطي بين الخير والشّر. فقد تركت ورائي كل شيء، خالتي التي هي أمي واصدقائي وسهراتنا وحيواناتي الأليفة، خاصة حيواني المفضل "مبروك" فقد كنت احبه كثيرا. حتى هو كان يحبني فقد كنت الشخص الوحيد الذي لا يعنفه، لا شك انه قد افتقدني هذا الصباح، فقد جرت العادة أن أصبح عليه كل صباح لأقدم له حشائش الفصة الطّرية، لا شك انه قد نهق طويلا فهذا ما يفعل عندما أتأخر عنه. ستشتاق اليّ حبات التربة الحمراء وأشجار التين وقطرات الندى على اوراق الشجيرات، سيشتاق إليّ الحقل بكل تفاصيله، سأشتاق بدوري لنسمات هوى مليح، تلك التي كانت تعاكس جبهتي المبللة بالعرق، سأشتاف للنوم بعد الظهيرة، تحت شجرة الزيتون العريقة، سأشتاق المياه المنسدلة في الساقية وهي تعزف سنفونية موزونة ساحرة أخاذة. سأشتاق إلى طيور كانت تطربني، طائر الحسون؛ ذو الرأس الأحمر وبسباسته، طائر الخضر أصفر اللون وبلبالته، طائع النيلو؛ ذو الصدر الأحمر ولحلحاته. سأشتاق وأشتاق كثيرا وأعرف أن الكلمات لن تعبر عن مدى اشتياقي مهما حاولت. تركت كل هذه التفاصيل وجئت الى هنا بعيدا، باحثا عن الحياة السعيدة وعن وجودي قبل كل شيء.

ياله من هروب ماكر. لا شك انها ستكون رحلة مليئة بالمغامرات والاكتشافات، فلحدود الآن تعلمت الدرس الأول، ألا أثق في أي شخص، فليس كل البشر طيبين مثلي. آه لو أنى لم استمع لكلام ذلك المحتال، لما حدث الذي حدث. فلا شك انه قصد غيري كثر، لكنهم كانوا أكثر حكمة مني فلم يقعوا في شراك فخه. لا أدري لماذا خطر هذا السؤال بخاطري الآن: لماذا تم النصب عليّ؟ أقصد لماءا انا بالذات؟ ربما لأنني أبلهٌ أو ربما لأنني صادق؟ وهل الإنسان الصادق محكوم عليه بالشقاء؟ إذا كان الامر كذلك فهذا يعني أن من يسير هذا الكون كائن شرير! حشا أن يكون رب العالمين شرير. لربما كنت سأكون أفضل حالا مما انا عليه الآن لو كنت أكثر حكمة. لم أستطع التوقف عن التفكير في الأمر. لماذا تم النصب علي؟ هل هكذا تجازي الحياة إنسان طيب القلب مثلي؟ ومثل أمي؟ إذا كان الأمر كذلك، فتبا لهذه الحياة ولمنطقها الغير عادل اللبثة. ها قد أصبحت الآن بصفر درهم وفي مدينة غريبة لم يسبق لي زيارتها ولا أعرف أحدا فيها. يا لها من بداية موفقة.

خرجت من المحطة ثم قررت أن انطلق وبسرعة للبحث عن مأوى، قبل حلول الليل، فالشمس لم تغرب بعد ومع ذلك أنا ارتجف من شدة البرد. لكنه في الحقيقة كان أمراً متوقعاً، أقصد برودة الطقس. لأن المدن الساحلية تكون

باردة بشكل رهيب. عكس القرية التي جئت منها، فقد كان مناخها مفارقة طبيعية، بحيث يكون الجوّ دافئاً في فصل الشتاء وبارداً في فصل الصيف. ليس المناخ البارد وحده ما يشغل بالي، فلحدود الآن، انا لا اعرف كيف سوف اتسلل لداخل السفينة؟ ولا كم سأبقى هنا في طنجة؟ أتمنى حقا ألا أبقي هنا كثير، فهدفي المنشود الذي هرِبتُ من أجله هو الوصول الى القارة الأخرى، وليس البقاء هنا في مدينة طنجة. الشيء الوحيد الذي انا متأكد منه هو انني بدأت ترتجف من شدة البرد، وأنه لم يتبقى لي إلا بضع ساعات لغروب الشمس. بدأت التسكع هنا وهناك، أكتشف زوايا المدينة لأول مرة، حاولت رسم حدود لها، لكن دون جدوى. فالمدينة كبيرة جدا أكثر مما كنت اتوقع. صادفت في طريقي، مكانا مليء بالأشجار على طول مد بصري. يوجد له باب حديدي ضخم، حيثُ حشدٌ هائلٌ من الناس منهم من كان يدخل اليهِ ومنهم من كان يخرج منهُ. دخلت من حيث رأيت الناسَ تدخلُ، أعجبني حقا هذا المكان، كما يقول المثل الناس تحب بيئتها. وأنا بيئتي هي الطبيعة لهذا عشقت المكان. كان في المكان طاولات كراسي ومضلات.
العشبُ أخضرُ في كل مكان، أزهار مزركشة، وأشجار متنوعة منها شجر التوت والصفصاف. جلست على أحد المقاعدِ الخشبيةِ المدهونةِ باللّون الاخضر، سرعان ما

ذكرتني رائحة العشب بالحقل، فلم أستطع مقاومة رغبتي في الاستلقاء، فاستلقيت على ضهري موسدا حقيبتي مثل الوسادة، استحوذت على المقعد كله لنفسي وحدي. لقد كان كل شيء في طنجة مختلف، فالأضواء تملأ الشارع والفتيات الحسناوات يلبسن سراويل الجينز القصيرة.
لربما فهمت الآن، لماذا شباب القرية يتهافتون للذهاب الى المدينة. كانت أنفاسهن الساخنة الممزوجة مع العطر في كل مكان. رأيت نهودهن المتمردة وسمعت ضحكاتهن المثيرة، شاهدت مشيتهن المائلة، لا مجال للمقارنة مع القرية من حيث اتيت. بدأت التأمل في السماء الشاسعة، محاولا الهروب من كل هذه الفتن. كان الجوّ ليلتها صحواً والقمرُ متوهجاً والنجومُ تغمزُ لي من حين لآخر. ذكرني القمر المتوهج بليلى فتاة أحلامي. آهٍ يا ليلى كيف انساكِ وقد اغريتني. يقال إن الحب الأول لا يُنسى، وانا من الأشخاص الذين يؤمنون بهذه المقولة. كيف أنساكِ يا ليلى وصورتك تحظرني بمجرد رأيتي للقمر. آهٍ لو كنتِ تعرفين ما في قلبي من هُيامٍ وعِشقٍ لكي، لما تجرئتِ ولو لثانية واحدةٍ على صدي. كم هي الحياة جميلة لمن توفرت له الظروف لرئتيها جميلة، فمثلا أنا لو كانت لي عائلة أبٌ وأمٌ ومنزلٌ وحياةٌ طيبة، لما فكرت في الهروب من الأساس، لعشتُ حياةً هادئةً ومطمئنةً مليئةً بالحب والسكينةِ. إنّ الذين يمتلكون

عائلاتٍ حقيقية ويتمتعون باستقرار نفسي ووجداني يعيشون في نعيم، نعيمٌ حقيقيٌ، لكن اغلبهم لا يقدرون هذه القيمة. من عادات الانسان السيئة انه لا يشعر بقيمة الاشياء حتى يفقدها. إن الانطوائيين أينما كانوا، ومتى ما كان الزمان، ومهما بدو للآخرين اناسٌ مختلفين إلا أنهم في الحقيقة أناس عاديين، هم فقط اختاروا أن يكتفوا بأنفسهم فقط، لقد كونت الظروف والتنشئة التي عاشوها شخصياتهم بهذا الشكل، فهم ليسوا مرضى نفسيين وليسوا متكبرين كما هو شائع، فإن كانوا غير اجتماعيتين فهذا مجردُ موقفٍ تبنوهُ لا يعبر عن أي موقف اخلاقي، هم فقط اعتقدوا انهُ الانفعُ والاصلحُ لهم وهذا موضوعٌ آخرٌ يناقشُ. علينا جميعنا أن نكون منفتحين، متفهمين الآخرين، فالأخر الذي لا يشبهني ليس عدوي، فكما يقول المثل، الاختلاف لا يفسد للود قضية.

ما زلت متكئ على المقعد أفكر في كل هذا، لقد زاد حقدي على هذا الذي يدعوا نفسه "الخالق" بسبب تعذيبه المستمر لي. فلئن كان يحسب أنه بإيلامي ووضعه العقبات في طريقي يجذبني إلى حظيرته ويصلحني، فإني أستطيع أن أؤكد له أنه أخطأ في التقدير! ثم تطلعت إلى السماء وأنا أكاد أبكي من هذا التحدي. لقد قلت له هذا بهدوء في ضميري للمرة الأولى والأخيرة.

كنوت هامسون -الجوع

ما زلت في الحديقة العمومية، لا أدري، هل سيبقى هذا الباب الحديدي مفتوحا؟ أم أنه سيغلق بعد حين؟ لكن على أية حال تأكدت من أن الدخول إلى هنا مجاني. لا زلت في حيرة من أمري، كأنه حلم. نعم حلم، لكن حلم حقيقي. كانت حركة المارة ذهاباً ومجيئاً أمامي تشعرني قليلا بالطمأنينة والسكون. كنت متردداً في طلب المساعدة من المارة، فأنا لست متسول، لكن أنا في حاجةٍ للمساعدة، ربما قد يمدني أحدهم برغيف خبزٍ، أو ربما حتى كلمة طيبة قد ترفع من معنوياتي، كنتُ دائماً متعجباً من ضعفي العاطفي، كيف يمكنُ لكلمةٍ بسيطةٍ أن تسيطر على نفسيتي سواء إيجابياً أو حتى سلبياً، انا بحاجة الى الدعم الآن، اي دعم مهم كان، فهو يفي بالغرض. لن أكون انسانا إن لم اشعر بالوحدة في هذا المكان الغريب عني، حتى لِسان هؤلاء الشماليين يختلف عن لساننا نحن اهل الشرق. إن الشعور بالغربة والوحدة لأمر سيء حقا. لقد كنت كلما وقفتُ لكي اطلبَ المساعدةَ من أحدهم، كنتُ اتلعثمُ حتى قبل حتى أن أبدأ بالكلام وأشعرُ بالخجل. لم أكن يوماً من النوعِ الذي يمدُ يديه للآخرين. أعود مرة اخرى للاستلقاء في مكاني. بقيت على هذه الحال لمدة من الزمن، رويدا رويدا، بدأت حركة الناس تقل، لمحت رجلان ضخمان يلبسان جيلي

أصفر، حينها أدركت أن هذه الحديقة محروسة وأن أبوابها على وشك أن تغلق. يجب على إذن إيجاد مكان آخر آمن ابيت فيه والا سأتجمد من شدة البرد، هذا إن لم التقي بعصابة ما فتشبعني ضربا، فأنا غريب هنا ويجب علي توقع الأسو دائما. حملت حقيبتي بين ذراعي وبدأت اتسكع في الشوارع بدون اي وجهة محددة من جديد. لا أنكر انني شعرت هذا اليوم بنشوة الحرية التي لم يسبق لي أن شعرت بها من قبل. فأنا حر تماما لا قيود علي، لست تابع لاحد، لكن للأسف هذه المتعة لم تدم طويلا فالشمس قد غربت بسرعة لم اتوقعها، وانا لحدود الساعة لم أجد أي مؤوى يأويني من هذا البرد، الذي يبدوا انه قد اشتد، ويبدوا أيضا أنه عازم على ألا يرحم أحدا هذه الليلة. تذكرت فجأة انني في طريقي قد مررت بعدة مساجد. آه. كيف نسيت هذا الأمر. ما زلت أتذكر كيف أن أناس كثر كانوا يقصدون مسجد الدوار، طالبين بيت الله للمبيت. حمدت الله لان مشكلة المأوى قد حلة أخيرا، لكن ما زال سؤال واحد عالق في ذهني بما ان المساجد كثيرة وللمدللة، فلماذا اذن المتشردين لا يبيتون فيها؟ عوض النوم في العراء بين الازقة وافتراش الكرتون؟ آه... كيف لم أفكر في هذا. عدت ادراجي مسرعا فهذه المرة أنا أعرف وجهتي جيدا. دخلت لأول مسجد صادفته. فلا مجال للتردد فالشمس قد غربت

والبرد قد كشر عن أنيابه. كان من الواضح انني لست من المصلين، لأنه قد مرّ على صلاة العشاء نصف ساعة.

دخلت مرددا السلام عليكم يصوت غير مسموع وباستحياء كبير. صليت تحية المسجد وجلست، فلم أستطع كبح نفسي عن التأمل في هذا المسجد العظيم وزخرفة جدرانه الحلزونية وشساعة مساحته وألوان زرابيه المزركشة. فقد كان دافئ ولطيف، ومجهز بمراويح كثر، خطر ببالي سؤالي هل في المساجد أيضا توجد الطبقية الاجتماعية؟ وهل جميع المصلين نفس الحسنات؟ فليس من العدل أن يحصلوا على نفس الحسنات؟ أقصد، شخص صلى في مسجد بلا نوافذ وبدون مراوح التهوية بين شخص آخر صلى في مسجد فخم مكيف. استعذت بالله من الشيطان الرجيم، من هذه الأسئلة الشيطانية في بيت الله. لكي أصدقكم القول، فأنا لم يسبق لي أن دخلت الى مسجد رحب كهذا، في حياتي كلها. فالمسجد الذي لدينا في القرية كان صغير، اما من الناحية المعماري فكان ابسط ما يكون، فقط مستطيل. كان أقرب ما يكون إلى غرفة طويلة مفروشة بالزرابي الباهتة، اما سقفه فكان من الخشب والتربة الملونة بالجير الابيض. اما الصومعة فكانت فقط عمودين حديديين طويلان مثبت عليهما بوق مخرشش الصوت

موصول ببطارية السيارة وميكروفون مثبت في الحائط. كسر رجل طويل القامة وابيض البشرة ذو لحية سوداء كثيفة تأملي بسؤاله:" -كيف يمكنني مساعدتك؟" تلعثمت ... آه، نعم انا فقط غريب عن المدينة ولقد تم النصب علي في المبلغ الذي كان بحوزتي؛ وكل ما أريده يا سيدي هو مكان لكي أحتمي فيه من لسعات البرد القارسة إلى حين! بدء الرجل في النظر إليّ بنظرات تفحصيه ثاقبة تشكيكيه. لقد كان من الواضح أنه لم يصدقني. شعرت حينها بالظلم شديد، كأنني إنسان غير صالح، حقير محتقر. فانفجر صوت بداخلي، يصرخ بأعلى جهد، انا لست متسول، لست لصا، انا لست كاذب، انا أقول الحقيقة فحسب، انا انسان صالح، فقط هي الظروف التي وضعتني في هذا الموقف. أردف الرجل قائلا: " من اين انت؟ قلت له انا من قرية صغيرة في شرق المملكة تدعى *تمسمانت". كان من الواضح أنه لأول مرة يسمع بهذه القرية، لكنه ما يزال حذرا مني، استرسل كلامه بسؤال آخر: " وما الذي جاء بك إلى طنجة؟" ترددت في الإجابة هذه المرة. هل أكذب وقد استعطافه؟ ام أقول له الحقيقة؟ لكن في النهاية اخبرته بالحقيقة: لقد اتيت إلى مدينة طنجة الساحلية، من أجل الهجرة إلى أوروبا! قال لي بصوت خشن وبنظرات حادة: " – انت تعلم أن المسجد هو بيت الله، لعبادته

سبحانه، ليس فندق للنوم. أخرج من هنا وإلا طلبت لك الشرطة الآن!" لقد كنت متوقعا ردت فعله تلك، فلم أرتح له منذ اللحظة الأولى، لا أدري من يكون، هل هو الفقيه؟ ام الحارس؟ بصراحة لا أدري لكن أرجح انه الفقيه، أنا من الناس الذين يصدقون حدسهم، لهذا لم انصدم كثيرا. أدرت له ضهري وانطلقت متثاقل الخطى، خائب الضن. غادرت المسجد وأنا حزين للغاية، يبدوا ان الناس هنا ليسوا كالناس الموجودين عندنا في القرية، أو ربما المساجد هي التي لا تتشابه! بصراحة لا أدري. بينما انا أخطوا آخر خطوة خارج حرم المسجد، خافتا رأسي، مطرودا، مهان، لكمتني رياح باردة على وجهي، كأنها ضربة آتية من اعماق المحيط البارد. فجأة وبدون سابق إنذار تغير الجوّ. أصبحت الريح تعصف بقوة محدثة صوت مزمجرا. اختلطت عليّ المشاعر ولسبب ما لم أستطع معرفته، تذكرت أمي وهي تحتظر في المستشفى، لقد كنت صغيرا حينها، لكن بالرغم من ذلك، ما زلت اتذكر ذلك اليوم المشؤوم جيدا، بل وبأدق تفاصيله أيضاً. كانت آخر كلمات أمي ونحن مجتمعين على سريرها مشتلين بذلك حلقية، كانت هي تتكلم بصعوبة بالغة، تخاطب خالتي وتوصيها وهي تمسك بحرارة يدي: " اعتني به فهو امانة في رقبتك." بعد هذه الكلمات القليلات تركت يدي، ثم صاحت خالتي: "لا ...

لا تذهبي... ارجوكي" قالت ممرضة، لا يبدوا على وجهها علامات التأثر، لطالما تساءلت مع نفسي؛ هل الممرضين ما زال في قلبهم ذرة شعور؟: "البركة في رأسكم" عندها احتضنتني خالتي بحرارة، محاولة بفشل إخفاء دمعها: «أمك يا صغيري لم تمت، هي فقط نائمة، لا تخف يا صغيري." كنت طفلا حينها لم أستوعب فظاعة المشهد. أمي كانت تعمل كخادمة في المنازل، كنت التقي بها مرة في الاسبوع، كانت تشتري لي اللعب والملابس في كل لقاء. كنت عندما أسئل خالتي، اين هي امي كانت تجيبني: إنها في العمل يا صغيري، نهار السبت ستأتي، فهي تعمل ليل نهار من أجلك. قبل موت امي، كانت خالتي هي التي تعتني بي، كنت وما زلت أتساءل مع نفسي من هي الام يا ترى؟ هل هي التي تلد ام هي التي تربي وتسهر؟ أرجح أن الخيار الثاني هو الصحيح على الاقل، في حالتي. أما ابي، فانا لم اره قط في حياتي وحتى خالتي لا تحب الحديث عن هذا الموضوع، كل ما أعرفه انه قد توفي قبل حتى أن ازداد. لا أدري لماذا اشعر ان هناك سر ما في هذه القصة. لقد اخطلت عليّ الماضي والحاضر، لا افهم لماذا تذكرت كل هذه الأشياء القبيحة في هذه المرحلة، للناس ذكريات جميلة ينشرح لها القلب بمجرد تذكرها، اما أنا فإنني أغرق في مزبلة التاريخ التي تفوح منها

روائح كريهة، اه لو كان للإنسان قدرة على مسح أجزاء من ذاكرته، فما ترددت ثانية واحدة. بدون شعور بينما انا على هذه الحال فإذا بسيول من الدموع الجارفة بللت خدي، ربما بسبب قلة حيلتي. الامر صعب جدا عندما بتكالب عليك الحاضر الضبابي والماضي المّر والمستقبل الغامض. جلست متكيا على حائط اسمنتي، غير ملال بالبرودة التي تصعد معي. إلى ان قطع هدوئي صوت رجل عجوز «-هل استعدت مالك يا فتى؟ يبظوا انه كررها مرتين فقد كنت سارحا في خيالي، استدرت متعجبا من هذا يا ترى الذي يخاطبني؟ وكيف عرف قضية النصب الذي تعرضت له؟ لقد كان هو نفسه العجوز الذي التقيت به هذا الصباح. مسحت بسرعة دموعي فأنا لا اريد إثارة شفقة اي أحد. لحسن الحظ لم يلاحظ انني كنت ابكي، أو ريما لاحظ ذلك لكنه لم يكترث أو على الأقل تظاهر انه لم يلاحظ. أجبته عن سؤاله: كلا، فذلك النصاب الأسمر، الوغد، الحقير، قد اختفى، بحثت عنه طويلا في المحطة، لكن دون جدوى!! بما انني كنت في أسوء. احوالي النفسية، شعرت انني بحاجة للفضفضة، لم اتردد في طلب المساعدة منه. شعرت بترددٍ لوهلة، لكن سرعان ما تذكرت قسوة الوحدة، فطرحت السؤال عليه مباشرة: المعذرة يا سيدي، فانا جديد هنا، ليست لدي اي وجهة

محددة، انت تفهم الذي اقصدهُ، أليس كذلك؟ ابتسم العجوز، ابتسامة لم افهم معناها، لكن تبدو على اية حال صادقة، نابعة من اعماق قلبه فهي ليست مصطنعة. ثم أردف هيا اتبعني بديا بني، فهناك مكان يأوي كل الاشخاص الكادحين، الذين هم بلا مأوى.

شكرتهُ وبدون أيّ ترددٍ تبعته، فليس لدي ما اخسره، شعرت أخيرا بتحسن نفسي، آهٍ... لو أعلم وزارات الصّحة كم هو ضروريا أن يجد كل انسانٍ، شخصاً واحدا على الأقل يشعرُ به ويفهمهُ لعمموا أطباء النفس في كل المستشفياتِ. لم ينطق العجوز بأي كلمة طوال الطريق، لا أدري هل هي حكمة بالغة؟ لم أستطع فك تشفيرها! ام هو فقط لا يجد ما يقوله! فعاندته أنا الآخرُ بنفسِ الصمتِ طوال الطريق. كنتُ اتبعُ هذا العجوز وفي نفس الوقت أحاولُ تذكر معالم الطريق، لكي أعود مرة أخرى، إن اضطررت وكنت اتمنى في نفس الوقت ان لا أعود إليه مرة أخرى، فقد كانت الازقة مهجورة ومخيفة، عكس تلك المجودة في وسط المدينة. بدت لنا دار خرباء، بعيدة معزولة لوحدها في زاوية. كانت تقع في النقطة التي تفصل بين المجال الحضاري والقروي. رفع العجوز يدهُ مشيرا بسبابته، ة ويخاطبني ذلك هو المأوى الذي يجمعنا ويقينا من الصقيع البارد، لحدود الآن لا افهم لماذا يستعمل هذا العجوز صيغة الجمع.

أكملنا الطريق، وكلما اقتربت من المكان، بانت لي معالم الخرباء واضحة أكثر فأكثر، لقد كانت عبارة عن منزل مهجور بدون نوافذ وبلا أبواب، ضحكتُ من غرائبِ الصُدفِ. هل حُكم عليّ أن أعيشَ في المنازلِ التي هي بلا ابواب وبلا نوافذ فقط؟ ألم احذي أنا الاخر بشرفِ النومِ في منزلٍ حقيقيٍّ؟ كان المكانُ متسخاً أكثر من الشارع نفسه. على الأقل الشارع يُنظفُ من حين إلى آخر، اما هذه الخرباء فمن الواضح انها لم تنظف منذ زمن بعيد. سرعان ما لاحظت أن المكان يعج بالأشخاص من مختلف الأعمار، اطفالٌ وشيوخٌ ذكورٌ وإناثٌ. الآن فهمتُ لماذا كان العجوز يتكلم بصيغة الجمع. لاحظت أيضا كمية الاحترام الذي يكنونه للعجوز، كان حقا ملفت للنظر. فالكل هنا يحترم "باحسان" اه نعم هذا اسمه لتوي انا الآخر عرفتهُ فقد سمعت أحدهم يناديه هل من جديد يا "بإحسان"؟ فاكتفى بهز رأسهِ يميناً ويساراً، دون أن ينطق ولو بكلمةٍ واحدةٍ. بينما انا ما زلتُ في حيرةٍ من أمري مشغولٌ في التفكيرِ والتأملِ فقد كان يوماً طويلاً بالنسبة لي والأحداث الكثيرة تسارعت بطريقة رهيبة لدرجة أنني أصبحت لا اقوى على هضمها كاملة. يقاطع العجوز تأملي هذا بقوله: "خذ قطعة الكرتون تلك وافترشها. سيكون البلاستيك هو غطاءك". افترشت قطعة الكرتون

تلك والتففت في حزمة بالبلاستيك مثل الدودة. ما هي إلا دقائق حتى سيطر السكون على المكان. لا أذكر كيف انني استسلمت للنوم بطريقة غريبة، فالتعب الجسديُّ والنفسيُّ أيضا قال كلمته.

الفصل السادس: الحياة مسرحية

كان الجوُّ في الصباح بارداً جداً، لدرجة أنني، كنت أكاد لا أشعرُ بأصابع قدمي. في الحقيقة البلاستيك عزل البرد عن جسدي بشكل رائع، لكن المشكل ان قدمي لم أستطع لفها في البلاستيك، لهذا كانت العضو الأكثر تعرضاً للسعات البرد. عندما استيقظت للوهلة الأولى لم استوعب أين انا، ظننت لوهلة انه مجرد كابوس وقد انتهى. لكن سرعان ما أيقنت أن الكابوس حقيقة وأنه قد بدأ لتوهِ. صحيح أنها كانت ليلة سيئة للغاية، أعتقد أنني لم أنم سوى بضع ساعات، لكن لم أشعر بالندم ابداً، فقد تركتُ كل شيء ورائي وتبعتُ حلمي وأسعى الى أن احققهُ فهو مشروع، المهم انني الآن حرٌّ، ولست عبدا لدى زوج خالتي، الذي كان لا يفرق بيني وبين الحمار مبروك. في الحقيقة أن أقارن مع الحمار مبروك لشرف عظيم فهو على الأقل أكثر شرفاً وفضيلةً من الكثيرين، فهو لا يكذب، لا يسرق، لا يخون. انا الآن حرّ، أنا الآن سيد نفسي. ارتفعت معنوياتي، نهضت من مكاني، ابحث عن خيوط الشمس الدافئة أريد أن امتص منها الطاقة الإيجابية. بينما انا مستلق على ضهري، اتشمس خطرت ببالي مقولة كان يرددها أحد بائعي النعناع في سوق الاثنين الأسبوعي، كان يردد دائما: أينما وجدت الشمس،

وجد الأمل. فشعرت بطاقة وبحماسة كبيرتين. بدأت عصافير معدتي تزقزق فقد كنت جائعا جدا لدرجة أنني على استعداد لالتهام اي شيء أجده أمامي، فقط لأسكت عصافير بطني، لقد أصبح الجوع يشوش على افكاري. فلم أعد أستطيع التفكير في اي شيء. فجأة لمحة العجوز "باحسان" وهو قادم من بعيد بخطاه البطيئة. ما لبث أن وصل الي حتى اخرج من جيبه قطعة من الخبز الحافي، ثم تمتم بصوت خافت مبحوح يكاد يكون مسموع: اليوم ستأتي سفينة تجارية ضخمة، سترسو في الميناء لمدة يومين وستنطلق عائدة إلى أوروبا، فلتجرب حظك!

تناولت الخبز من يده بدأت أقضمه بشهية، لم أعلق على موضوع السفينة، كأن الجوع في هلك اللحظة كان أهم بكثير من موضوع الهجرة. بدأت أن أنهيت قطعة الخبز وبدأت أشعر بحرارة تسري في جسدي، بدأت أفكر من جديد في الحلم، وأخيرا سوف أحققه سأذهب إلى بلاد الأنوار، التي لطالما حلمت بها. لقد كنت متحمسا لدرجة أنى نسيت حقيقة انني لا أعرف أي شيء، لا كيفية الدخول ولا كيفية الخروج؟ ماذا سأفعل عندما أصل؟ كم المدة التي سنقضيها في البحر حتى نصل؟ مجموعة من الأسئلة لا أجد لها جوابا على لحدود الآن. شكرت العجوز على خدمته فقد كان رجل طيبا وكريما جدا معي. لا أدري ماذا كانت ستكون حالتي لولا الصدفة

التي جمعتني به. اتجهتُ الى الميناء لعلي أجدُ هناك شخص ما يجيبني على الأسئلة الكثيرة التي تخطرُ ببالي والتي لا أجدُ لها جواباً. لمحة أحد الأشخاص الجالسين فوق صندوق بلاستيكي احمر، لقد كان شابا يرتدي نظارات سوداء وقبعة مقطعة سوداء، كان على ما يبدوا في نفس سني. اتجهت إليه في تردد، ألقيت عليه التحية، وأخبرته بأني بحاجة إلى مساعدة، فأنا ما زلت جديد هنا في المدينة، ولا أعرف كيف يمكنني التسلل إلى داخل السفينة. بادلني التحية، ثم ناولني قنينة صغيرة ظننت في البداية أن محتواها كحولا، شعر انني متردد في شربها فقال لي بسخرية لا تخف انه مجرد شاي، ثم ضحك بصوت عال. ضحكت أنا الاخر ثم فتحت القنينة وقد ترددت بعض الشيء في شرب منها، فأنا لا أعرف من يكون هذا الشخص، فقد عرفته لتوي. ماذا لو كانت سماً أو محذراً ما. فالثقة العمياء هي بمثابة انتحار. لكن ما الغاية التي ستدفعه لقتلي أو لتسميمي مثلاً، فأنا مجردُ كادحٍ فقير حقير. نظرت إليه وإلى القنينة ثم رشقة منها رشقةً، لقد كان مذاق هذا الشاي حلوا جدا، الكثير الكثير من السكر والقليل من الشاي، حتى غلب السكر على ال ماء واختفى مذاق الشاي. لم اتردد في طرح السؤال عليه، انه حلو جدا كيف تستطيع شربه؟ ضحك الفتى مرة اخرى وقال ساخرا: سوف تعلمك الحياة يا صاحبي

أن الشيء الوحيد الحلو فيها هو السكر وكل شيء غيرهُ فهو مرّ. لم افهم ما كان يقصده، لكن لا بأس على الأقل وجدتُ شخصاً أتبادل معه الكلام. بعد دقيقة من الصمت والتأمل في أمواج البحر. سؤلته مرة أخرى -كم من يوم وانت هنا؟ صمت قليلا، كأنه لا يريد ان يجيب أو كأنه يفكر في إجابة من نوعٍ ما؛ ثم قال والابتسامة الساخرة مرسومة على وجهه: لًا أدري ربما شهر أو ثلاثة أشهر. استغربت من جوابه، هل يا ترى هو فعلا لا يدري، ام انه يسخر مني؟ اكتفيت بالصمت، فجوابه هذا بدى لي غريبا جدا، سألني من اين انت؟ ولماذا انت هنا؟ في الحقيقة كنت اتوقع أنه سيسألني، فالإنسان لن يكون انساناً إلا إذا فضولياً، أخبرته بقصة هروبي كاملةً، شرحت له لماذا انا عازم على الذهاب إلى أوروبا، بعدما فقدت الامل في العيش هنا. ضحك مرة أخرى وبدأ يدندن: أوروبا، يا حلمنا، أوروبا يا جنتنا، أوروبا يا انعتاقنا... يبدوا ان هذا الفتى كثير السخرية! سألني من جديد، لكن هذه المرة كان سؤالهُ استنكاري مباغت: هل يستطيعُ الإنسانُ أن يموت قبل أن يموت؟ لقد سوء تفكري شعرت بحرارة في جميع أنحاء جسمي، ما الذي يقصده؟ هل أمي كانت ميتت قبل ان تموت؟ ربما نعم وإلا لما امتلكت الجرأة لتضع حدا لوجودها. إن غريزة البقاء اقوى غريزة موجودة لدى الكائنات، لا يستطيع

التغلب عليها إلا عاقلٌ أو ميتٌ. لم أجبه فقط اكتفيت بالصمت. ثم أردف قائلا -هل الهروب في نظرك بهذه السهولة؟ قلت له: لا أدري، لكن انا مصمم على الذهاب. أشار بسبابته إلى مكان، كنت أعتقد في البداية انه فارغ، لكن عندم دققت النظر فيه وجدت أن المكان يعج بالحراكة، ثم قال لي: انهم مثلنا تماما، صدمت من كثرتهم، وعندما بدى على وجهي الاستغراب والدهشة، ضحك وأخبرني أن هذا العدد يضاعف أضعافا في الليل. فالحظ وحده من يقرر من منهم سيعبر ومن منهم سيموت ومن منهم سيقي هنا. أخرج من محفظته الصفراء قطعة من الخبز البارزياني، ثم قام بقسمها الى أربعة إجزاء، ناولني قطعة واحدة وقام بتناول قطعة واحدة وأعاد القطعتين المتبقيتين إلى محفظته الصفراء المتقطعة. تساءلت مع نفسي -لمن القطعتين المتبقيين؟ لكن سرعان ما كبحت عقلي وما فائدة معرفة جواب هذا السؤال الغبي، فالأمر لا يهمني، يكفي ان هذا الفتى قد تكرم علي، بعد أن تناولت قطعة الخبز تلك بشق الانفس، فقد كانت جافة وصلبة كالحجر. إن الانتباه للتفاصيل مرض، مرض حقيقي. آه كم اشتاق *للمطوع (نوع من أنواع الخبز) الذي كانت تعده خالتي، فقد كان رطب ومواقع كان منسم بالدخان فخالتي تخبز خبزها على الكانون وليس في الفرن. اقترح على الفتى القيام

بجولة سريعة في أزقة المدينة، لكي نشعر بالدفء، فبالرغم من ان الشمس ساطعة إلا ان الجو ما يزال باردا. سرنا طويلا إلى أن بدأت قدمي بالتورم، بعدها اختفى الشعور بالبرد. لقد كانت لصديقي الجديد عادة غريبة، فهو لا يضيع فرصة الدخول لأي مقهى يصادفه، كان يطلب مني الانتظار خارجا، فيدخل لوحده ثم يخرج بسرعة. لقد كرر هذه العملية عدة مراتٍ في عدة مقاهي. حاولت ألا أكون فضوليا، لكن الأمر كان صعب جدا بالنسبة لي. فطلبت منه تفسيرا منطقيا. قال لي انه سر البقاء في المدينة، فهو يقوم بجمع قطع السكر والشاي الذي يتركه الناس خلفهم. فالمقاهي كثيرة جدا، هنا في طنجة فكما يقول المثل بين مقهى ومقهى يوجد مقهى، الآن فهمت قصة قنينة الشاي الحلو التي كان يحملها معه. لم اتردد في القيام بنفس العمل الذي يقوم به، فأنا إنسان أحب التحدي؛ حصلت على قنينة فارغة ودخلنا لأحدي المقاهي معا، فبدأنا بسكب قطرات الشاي في قنينتانا وبجمع قطع السكر التي يتركها الأشخاص على الطاولات. لمحة أن بعض الأشخاص على وشك المغادرة، انتظرت إلى أن نهضوا ثم انطلقت مسرعا قاصدا طاولتهم، فلحسن حظي، النادل كان مشغولا، لو رآني لربما منعني او قد يعنفني، من يدري؟ قمت بسرعة بفتح قنينتي الصغيرة وبدأت بسكب الشاي

المتبقي من البراد إلى قنينتي. لكن، لسوء حظي لم أستطع ان املئ الا ربع القنينة، لكن حصلت على أربع قطع من السكر ثم خرجت مهرولا. ضحك صديقي عندما شاهدني وانا أخرج مثل ذئب سعيد جدا باصطياده للأرنب، والقنينة في يدي. تمتم وهو يقول ما يزال الكثير أمامك لكي تتعلمه. كنت سعيدا جدا فقد تأقلمت بسرعة مع هذه الحياة الجديدة. فجات وبدون سابق إنذار انطلق رفيقي نحو سيدة لا أستطيع تحديد عمرها لكن ربما بين أربعين إلى ستين سنة، ترتدي معطف اسود يميزه فرو كيف على مستوى العنق، كانت تضع حلقات دائرية في اذنها، وتضع على رأسها قبعة حمراء أنيقة. بدأ صديقي الجديد بتقبل يدها وهو يردد بخنوع وإذلال شديدين: أعطني خبزة سيدتي، أرجوك أعطني فقط القليل فأنا جائع. لكن السيدة هزت رأسها إلى الأعلى، كان من الواضح انها مستمتعة بلعب دور السيد والعبد. من الواضح انها امرأة قاسية، دفعته على الأرض، بدون شفقة، وقالت له ابتعد أيها الحثالة. وإلا طلبت لك المخزن، ثم بسقت عليه: أتفوا هذا مادام ينقصني هذا الصباح. لم أتمالك نفسي حتى وقفت أمامها، ادافع عن صديقي، كنت ارتجف، ليس من الخوف، لكن لأني مريض بالأعصاب، فمشهد كهذا كفيل بأن يكسر مزاجي لأيام طوال. استدارة وهي تردد يا له من يوم جميل، ما

كان ينقصني إلا مجموعة من المتشردين، ثم انطلقت بعيدا. استدرت إلى صديقي سألته: هل انت بخير؟ فاذا به ينفجر من الضحك. ياله من سخيف. بعد كل ما وقع له، يضح، فضحكنا معا. أخبرني بأنني سأرى أشياء وصراعات أكبر من هذا بكثير، فيجب على أن استعد لها. عدنا الى الميناء مرة اخرى فهو المكان المفضل لدينا كان بالنسبة لنا عبارة عن بوابة للجنة. جلسنا في مكان مرتفع، فوق شبكة طويلة، ممزقة مربوطة بين عمودين للكهرباء، كانت تستعمل سابقا للربط بين السفن الكبيرة. استلقينا فوقها وبدأنا التأمل في البحر وشاسعته والسماء وزرقتها وفي السفن وانواعها وفي طيور النورس ومكرها. بينما نحن في هذه الجلسة التأملية، لفت انتباهنا صوت بعيد ينادي من: باحسان... باحسان. تمتزج علي الخيال والواقع حتى نادى صديقي بأعلى صوته: لا .... لا هو ليس هنا. بعد وصول الفتى الذي. كان ينادي من بعيد، انتظرناه إلى أن استجمع أنفاسه، نطق اخيرا: باحسان اخذته الشرطة. سألته لماذا أخذته؟ أجابني الفتى: لقد تشاجر مع أحدهم. قال لي صديقي: سوف اذهب إليه فلن اترك باحسان لوحده في دار المخزن. قاطعته، بل قل سنذهب سويا. ابتسم صديقي وانطلقنا مسرعين إلى مغفر الشرطة. اختصرنا الطريق عبر الازقة لنصل بأقصى سرعة ممكنة. لقد كان

مظهرنا يوحي بأننا مجرد متسولين، لا أدري هل سيسمح لنا بالدخول. قام الشرطي الذي يقف في الباب بمنعنا من التقدم، سألت صديقي هل تملك البطاقة الوطنية؟ ضحك ساخرا ثم قال أنا وطني هناك، مشيرا بأصبعه إلى الميناء كان يقصد اسبانيا. بعد نقاش طويل الشرطي وبعدما رأى بطاقتي الوطنية سمح لنا بالدخول. كانت هذه الكوميسارية ضخمة للغاية كما أنها كانت تعج بالأشخاص منهم من كان يرتدي ملابس الشرطة ومنهم من كان يرتدي ملابس عادية. بدى لنا المكان كالمتاهة فقد كنت اتبع خطوات صديقي فقط. أخبرني صديقي بأن باحسان في السيلون الآن. صوت خشن من ورائنا زلزلنا: ما الذي تبحثان عنه أيها المتشردان. أجاب صديقي بلطف مبالغ فيه يصل إلى درجة الخنوع: نحن ايها الشاف نبحث عن باحسان يا سيدي. ضحك الشرطي حتى بانت أنيابه باحسان إذا امممم. لم أطمئن لهذا الشرطي أو الكوميسير لا أدري، فحدسي عادة لا يخونني. طلب منا أن نجلس على كراسي الانتظار ثم بدأ ينظر إلينا بنظرات غريبة وعندما لم يجد اي تفاعل منا، انصرف على الفور. أخبرني صديقي لاحقا ان هذا الشرطي معروف هنا في طنجة بالشذوذ الجنسي.
بمجرد ما أن غاب ذلك الحقير عن أنظارنا حتى وقفنا عازمين على إيجاد باحسان. بينما نحن كذلك فإذا بنا

نلمح ضابطين يسوقان رجل مكبد الايدي. ما أن تفحصت ملامحه حتى تذكرته إنه هو النصاب الذي قام بالنصب علي في المحطة، صحت بأعلى صوتي انه هو النصاب نصاب. خرج ضابط من مكتبه كان يرتدي ثياب عادية خاطبني قائلا: هل نصب عليك قلت بكل ثقة نعم أشاف. طلب من أحد الضابطين اللذان كان يقودان النصاب بإعادته من جديد إلى المكتب وطلب مني انا أيضا الدخول، نظرت إلى صديقي وطلبت منه الانتظار. دخلت الى المكتب انا والرجل الأسمر وضابط. قال لي الضابط هل انت متأكد من انه هو الشخص قلت نعم نعم هو نفسه بينما الرجل الأسمر أردف قائلا: لا أعرفه يا سيدي الضابط أقسم لك. نهر الضابط الرجل الأسمر بقوله اصمت ولا تتكلم حتى اطلب منك ذلك. بدأ الضابط بتدوين اقوالي. ثم نظر إلى الرجل الأسمر وقال له اتمنى ان تكون متعاونا هذه المرة أيضا وإلا أنت تعرف ما مصيرك. صمت الرجل الأسمر، فباغثه الضابط اذن نصبت عليه، اليس كذلك؟ لم يجب الرجل الاسمر بأي كلمة لكن على ما يبدوا ان الضابط قد تلقى الجواب الذي كان يبح عنه، سأله مرة أخرى هل تريد المحكمة ام ستتعاون معنا هذه المرة أيضا؟ هذه المرة نطق: لا أريد المحكمة. قال الضابط: أحسنت... أحسنت انت متعاون وهذا لصالحك. دخل رجال من الشرطة ثم قاموا

لسياسة الرجل الاسمر إلى مكان ما. وبقيت انا والضابط فقط. اخذ اقوالي ثم قال لي يمكنك أن تنسحب وستحصل على مالك الذي تم النصب عليك فيه كاملا لا تقلق.
خرجت من المكتب ووجدت صديقي برفقة باحسان ينتظرانني. سألني صديقي هل كل شيء على ما يرام قلت له نعم ثم سألت باحسان هل انت بخير قال نعم، المدللة. ثم خرجنا نحن الثلاثة من مغفر الشرطة. فوجدنا خمس من الشباب ينتظرون امام الباب، ما إن شاهدوا باحسان، حتى أسرعوا إليه وبدأوا بعانقه وهم يرددون الحمدلله، على سلامتك. الشمس على وشك الغروب، مما يعني ان صراعا جديد مع البرد على وشك البدء.
اتجهنا كلنا إلى الخرباء، أقصد منزلي الجديد. بدأت باستكشاف المنزل لأول مرة. سألت مع نفسي، لماذا لا ننظفه ونصلحه؟ فقد يصبح في حالة أفضل بكثير مما هو عليه الآن. نقلت فكرتي إلى باحسان فابتسم وهو يردد فكرة رائعة حقا. كنت متحمسا جدا للفكرة استلقيت على ظهري وانا أتخيل هذه الخربة كيف ستبدو بعد التنظيف. اكتشفت ان صديقي ليس هنا. سألت باحسان اين هو صديقي فقال لي انه ذهب ليطعم الكلبة لويزا، فقد تكلف برعايتها منذ أن فقدت بصرها في حادثة، قلت باستغراب لويزا؟ قال باحسان: نعم ولها خمسة جراء، فصديقك هو الذي يعتني بها. اه نعم نعم

لهذا قسم قطعة الخبز تلك إلى أربعة أجزاء الآن فهمت لماذا. استلقيت على ظهري مجددا وقلت في نفسي لا شك أن صديقي هذا يملك قلبا كبيرا، فلا يمكن لأي شخص في هذه الظروف القاسية التي نعيشها، أن يخصص وحيزا زمنية، فقط من أجل الاعتناء بحيوان ما. ناداني شاب: تفضل قطعة البلاستيك، ادخل داخلها فلن تشعر بالبرد ابدا. شكرته؛ وقمت بلفها على جسمي، وكانت دافئة فعلا لدرجة أنني اخيرا شعرت بالرغبة في النوم، فغفوت دون شعور. استيقظت على نفس التوقيت الذي كنت اذهب فيه للعمل في الحقل. لقد كان الجميع نائمين بدأت انقلب في مكاني. تذكرت فكرة البارحة بخصوص المنزل فوقفت من مكاني وقمت بجمع قطع الكارتون والبلاستيك. بدأت بتنظيف المدخل، فقد كان المكان متسخ كثيرا، كان كلما استيقظ أحده الأشخاص، إلا وبدأ بمساعدتي حتى أصبحنا أربعة أشخاص نعمل على جمع الاوساخ المنتشرة هنا وهناك. عندما استيقظ باحسان، وجدنا تقريبا قد أصبحنا سبعة أشخاص، أنهينا تنظيف المدخل. أحسنتم عملا احسنتم يخاطبنا. بعد مدة كان الكل استفاق من نومه وابو جميعهم بالمشاركة، اخيرا أصبحت أرضية المنزل كاملة تظهر بعدما كانت مغطاة كلها بالأوساخ. صرخ باحسان تمهلوا. تمهلوا. لدي فكرة انطلق بخطاه الثقيلة المتمايلة محاولا أن يسرع

ونحن نتابعه بأعيننا حتى اختفى أنظارنا في ذهول وتساءل ماذا كان يقصد؟ وما الذي سيفعله يا ترى؟ اكمانا نحن عملنا فماهي الا دقائق حتى شاهدنا شاحنة زرقاء ضخمة قادمة اتجاهنا وباحسان يلوح بيديه. آه، لقد فهمنا جميعنا. في جوّ احتفالي، هتفت بأعلى صوتي أحسنت صنعا باحسان فقد كانت شاحنة النظافة وسنجمع فيها النفايات الضخمة التي اخرجناها من الخرباء، حتى العمال الذين يعملون في تلك الشاحنة قاموا بمساعدتنا، بل اقترحوا علينا أن ينظفوا لنا الأرضية بالماء فالشاحنة مجهزة بخزان ماء وأدوات النظافة. شكرنا لهم معروفهم، كنا جميعنا سعداء. انصرفت الشاحنة وبقيت أتأمل المنزل، اه لو يفرش وتركب له النوافذ والأبواب لأصبح منزلا حقيقيا. قال باحسان: أعلن من الآن بداية حملة جمع المال من أجل إصلاح المنزل، اقترح أحد الاشخاص، أن ننشر الخبر في الأحياء الراقية لعلنا نجد محسنا يتكلف بالمصاريف. بدأ كل المتشردين بنشر الخبر في المقاهي والازقة والمحلات التجارية. لكن مع كامل الاسف دون جدوى فالناس لم تكن تصدقهم، بل كان منهم من يأتي الى المأوى ثم يتأكد بنفسه، لكنه لا يساهم ولا حتى بسنتيم واحد اعتقاداً منه باننا مجموعة من الماكرين. الشمس غربة وبات النهار مساء. بدأنا نجتمع في المأوى الواحد تلوى الآخر. ساد السكوت في

المكان، فباحسان نادرا ما يتكلم وعندما يتكلم يجب أن ننصت جميعنا: لقد أصبح المأوى نظيفا والمحافظة عليه مسئوليتنا جميعا، وهذا راجع بعد الله تعالى إلى رفيقكم الجديد فهو صاحب الفكرة. لقد كان يقصدني انا. أكمل قائلا: لكن للأسف لم نجمع شيء من النقود من أجل شراء نوافذ وأبواب، لكن لا تقلقوا ولا تيأسوا من رحمة الله، فهذا فقط اليوم الأول ولابد من وجود محسنين كرماء، وجمعيات تؤمن بمشروعنا النبيل، سيمدون حتماً لنا يد المساعدة. اما الان يا ابنائي فارتاحوا وناموا فقد بذلتم هذا اليوم جهدا كبيرا. لقد كنت جائعا جدا، لا أدري كيف انني اغفلت هذا الأمر، فأنا لم أتناول أي شيء منذ البارحة. تبا فبمجرد ما ان تذكرت هذا، بدأت مصاريني تلتوي على بعضها البعض مثلما تفعل صغار لأناكوندا. لم أعد احتمل شدة الجوع نظرت إلى رفيقي كان مازال مستفيض، قلت له ألا تشعر بالجوع؟ ضحك كعادته دائما ثم قال لي اين قنينتك؟ آه نعم نعم كدت ان أنساها، بدأت أفتش في جيوب معطفي، يا إلهي كم انا أحمق. كدت أن أنسى القنينة وقطع السكر. رشقت جمة منها؛ لم يكن مذاقه مثل الشاي، كان اشبه شكله قاتم مثل عصير التوت ومذاقه كان حلو جدا. حسنا مذاقه ليس الأفضل لكنه يفي بالغرض. استلقيت في مكاني والتففت مرة أخرى في الكيس البلاستيكي، شعرت بالدفء، فغفوت

في نوم عميق. استيقظت على صوت مطرقة، فامتز عليّ الحلم بالواقع سمعت صوت خافت يقول لقد نمت كثيراً، هيا استيقظ، كأن خالتي هي توقظني، فتحت عيني فوجدته صديقي، يضحك أخبرني بأنني كنت اناديه بخالتي. يا إلهي لقد أشرقت الشمس، لقد نمت كثيرا. اخاطب صديقي قائلا له كم الساعة الآن؟ لم يسبق لي أن نمت كثيرا قبل هذه المرة. ابتسم وقال: هذا لأنك بذلت مجهودا عظيما البارحة وكنت بحاجة إلى الراحة. سألته عن مصدر الصوت المزعج ومن ذا الذي يطرق بالمطرقة ... ضحك رفيقي انها نفاجئه. بدافع الفضول نهضت من مكاني مسرع لكي أرى ماذا يحدث. انه باحسان رفقت النجار. ألقيت عليهم التحية ثم سألت باحسان هل من جديد قال نعم لقد أنفقت المال الذي استعدته من ذلك النصاب في إصلاح المأوى، حسنا هي ليست نوافذ بكل ما تحمل الكلمة من معنى، لكنها تفي بالغرض فلن تدخل بعد الآن التيارات الهوائية المزعجة. ثم أردف قائلا: اه كدت أن أنسى مالك موجود في مغفر الشرطة، يمكنك الذهاب واستلامه، خذ معك فقط بطاقتك الوطنية. إن سماع خبر مفرح في الصباح كفيل بأن يجعل يومك كله سعيد، من جهة الاعمال في المنزل ومن جهة أخرى سأسترجع مالي، طلبت من رفيقي مرافقتي الى مغفر الشرطة من أجل استلام مالي. فوافق

دون تفكير أو تردد. اه لقد نسيت الم يكن من المفترض أن ترسوا سفينة في الميناء هذه الأيام، لقد انشغلت بالمأوى ونسيت السبب الأساس لتواجدي هنا. وصلنا إلى مغفر الشرطة وشرحت للشرطي عند الباب سبب مجيئي، دخلت وانتظرني صديقي عند الباب. سألت أول شرطي صادفته في طريقي: من فضلك سيدي... قبل أن أكمل سؤالي تعرف علي وطلب مني الدخول إلى مكتب أحد الضباط. بمجرد دخولي باغثين الضابط بالسؤال؛ لم يترك لي حتى الوقت لإلقاء التحية عليه، كم يبلغ المبلغ الذي تم النصب عليك فيه. قلت له دون تردد مئة وخمسون درهما يا سيدي. طلب مني التوقيع على بعض الاوراق، التي لا اعلم ماهيتها. ثم سلمني ضرفا طلب مني فتحه ففتحته وكان المبلغ كاملا. قبل ان أشكره على هذا الفعل سبقني بعبارته يمكنك الانصراف الآن. كنت اردد في نفسي الحمدلله، الحمدلله. وجدت صديقي مستلق على عشب اخضر مقابل باب المغفر. خاطبني: هل استعدت مالك؟ قلت له نعم. ضحك وقال: أصبحت غنيا الآن. ضحكت قائلا اكيد فقد أصبح مليونيرا الان. انطلقنا الى الميناء، فإذا بنا نلمح من بعيد السفينة الضخمة، لقد كانت أكبر سفينة أكبر سفينة رأيتها في حياتي. انبهر صديقي بقدر انبهاري، يا لها من ضخمة. جلسنا وبدأنا نتأمل في حجمها. اه لو نستطيع التسلل إلى

جوفها لكن كيف؟ شاهدت حراس أمن من بعيد، فسألت صديقي: ما رأيك أن نسأل حارس الأمن، ذاك عن السفينة لعله يمينا بمعلومات قد تفيدنا. اجابني صديقي بكل سرور فلنساله بمجرد ما أن أصبح حارس الأمن بنظرية منا نهضت انا ورفيقي باتجاه الحارس، ألقينا عليه التحية، ثم سألته انا الأول من اين انت هذه السفينة؟ قال وهو يبتسم من العدم. تظاهرت انا ورفيقي بالضحك بالرقم من أن كلامه لم يكن فيه ما يضحك. نطق صديقي لكن يا سيدي فلأشيء يأتي من العدم. هذه المرة ضحك حارس الأمن ثم قال: انها سفينة تجارية آتية من فرنسا تمر على عدة دول من شمال إفريقيا وهي الآن متوقف هنا بالمغرب وغدا ستكمل مسيرها. سأله صديقي الى اين ستتجه غدا؟ قال الحارس: إلى موطنها. شكرنا الحارس وتمنينا له ليلة سعيدة. اتجهنا إلى الملاجئ، لقد أصبح منظره الآن أكثر جمالا، خصوصا بعد اللوحات التي أضيفت على النوافذ أصبح الآن يشبه المنزل إلى حد كبير. حاولت النوم، لكن صورة السفينة وكلام الحارس شوشا علي. وجهت نظري إلى صديقي فوجدته هو الاخر غارقا في التفكير، نهضت من مكاني لأن النوم عازم على ألا تزورني الليلة، طرحت السؤال على صديقي: ما الذي يمنعك من النوم؟ ضحك ثم قال هو نفس السبب الذي منعك انت الآخر من النوم. قلت له انها

فعلا فرصة ذهبية والفرص اما أن تستغل واما ان تضيع.

الفصل السابع: وطني البئيس

خرجنا واتجهنا إلى مكان، لم يكن ببعيد كثير عن المأوى، حيث توجد الكلبة لويزا، بدأ صديقي بمداعبتها: اهلا اهلا هل ما زلت انت الاخرى مستيقظة؟ كيف حالك؟ وكيف حال جرائك؟ أراكم بخير وبصحة جيدة. كانت الكلبة لويزا تتفاعل معه بشكل غريب، كأنها كانت تفهم تماما ما يقصده، وكيف لا وهو الذي اعتقها من موت محقق. يقال ان لكل إنسان قصة مختلفة عن قصص الآخرين، لقد شعرت برغبة في معرفة قصة صديقي، فخاطبته ما قصتك يا ترى؟ صمت طويلا ثم قال: أنا بلا عائلة، فمنذ أن فتحت عيني وجدت نفسي في دار الأيتام، كبرت هناك وانا لا اعرف ما معنى كلمة عائلة. كنت اعتقد وانا صغير أن الجميع يملكون، مديرا للمؤسسة وخدم ومربية مسؤولة عن كل جناح، كنت أعتقد أن هذا هو نظام العالم كله، الذي يحكم كل طفل في العالم، لقد قدموا لنا هنا كل انواع العناية من مأكل متكامل ومنوع، أسرى مفروشة واغطية جيدة، حمامات مليئة دائما بمختلف أنواع الشامبوهات والصابون، خزانات مملوءة عن آخرها بالملابس لكل الفصول، كل شيء يملكه اي طفل عادي، كنا نملكه، لكنهم نسوا اهم شيء، لم يستطيعوا أن يقدموه لنا، ولو جزء بسيط منه،

انه دفئ وحنان الأسرة. أتدرى لماذا؟ ببساطة لأنه لا يشترى بالمال، عندما كبرت بما يكفي للتميزي بين الاشياء، عرفت أننا نحن هم الشواذ، اما الحياة الطبيعية فكان من المفترض أن تتكون من كائنات محبة وعطوفة تسأل عن كل صغيرة وكبيرة، يخططان بحب يمارسان غريزتهم في كينونتهم، انهما الاب والام. بعد الصفعة القوية التي قدمتها الحياة لي ولأمثالي، قلنا لا بأس هذه الحياة بئيسة وكل من دخلها قطعا انه سيشقى فيها جزءا لا بأس منه. هكذا نشأة وعقدت النقص معي، حصلت على البكالوريا، فلم يسعد لي أحد غيري، لقد تم طردي من الخيرية، عندما تجاوزت الثامنة عشر من عمري؛ قالت مربيتي يوم مغادرتي: لكل بداية نهاية ونهايتك هنا في الميتم قد وصلت. كانت تقول هذا بتعاطف مصطنع واضح، وبتعبير ركيك خاطبتني: اتمنى لك حياة سعيدة. لم أعلق على كلامها، لزمت الصمت ثم حملت حقيبتي وانطلقت مسرعا، كان الغيض يملئني، اهه قالت حياة سعيدة هي تعرف السعادة، هي تعرف أيضا المدير عندما كان يقوم بزيارات مفاجئة، فكانت توقظنا في منتصف الليل، لكي تحممنا وتغير أغطية اسرتنا كي تبدوا نظيفة وتحفظنا بضع كلمات بئيسة لنرددها مثل الببغاوات امام المدير "المربية خديجة هي امنا التي لم تلدنا فهي تعطف علينا"، لكي يبدوا كل شيء مثالي،

فهي تبحث عن رضى مديرها، نعم، لكن ليس على حسابنا نحن، فنحن أطفال، فاهمتي يا مربية؟ مجرد أطفال... نحن لسنا اشياء، نحن أطفال، نشعر ونحس، غدا سنكبر وذاكراتنا ستكون مليئة بمثل تصرفاتك يا مربية.

طفولة الحرمان

طفولة الحرمان، من خيوط ثوب الليل، من أحزانهم حاك اليتم نسيجه فكسي طفولتهم بدلة برمضاء الأسى وزهورها شوك من الحرمان بسواد احزانهم يرون الحياة كئيبة ما ذاقوا طعم السعادة وحنان اليتم أبدلهم الحنان قساوة والحب مذبوح على وجدانهم، عمرهم بدا فيه الشتاء وبددت آمال احلامهم وكل امانيهم. يصمتون لتسير الحياة على ما يرام فالأيام لم تعد نقية، يؤلمهم الصمت وتؤلمهم الحياة ولكن توجعهم عواقب البوح، الشوق أرقهم وأقلق خاطرهم سيبقى رحيل أعز ما يملكون وجعا يمزقهم، تخرج من أفواههم بدمعة يتيم وقلب كسير أكثر العبارات تأثيرا في فقدان الوالدين، ليس لي اب مثلك لم يمسح والدي على رأسي، ومحيت من لساني أجمل النداءات، امي لن يأتي مثلها ابدا ولن يأخذ مكانها أحد ....

كوثر بنت نور البشير مراكشي

توقف صديقي عن الحديث فجأة، بعدما بدى عليه الانفعال، أصبح يتصبب عرقا، كأنه على وشك الدخول في أزمة نفسية، تغيرت نبرة صوته، بدى لي كأنه مصاب بالصرع، ردد كلمات بلحن معين: -زغردي يا امي يا ام الثوار، اطم حبلى بالأحرار، زغردي فالفجر دم ونار. رددها عدة مرات. ثم سكت وتنفس الصعداء، كأنه أفرغ ثقلا كبيرا، كان يحمله على كتفه. في هذا الجوّ المشحون بالعواطف، تذكرت الكلمات التي نقلتها خالتي عن أمي، لربما كانت الوالدة على حق، أنال أكون، أفضل بكثير من أن أكون، لقد تمنت لو رأتني ميتا على أن تراني شقي ومعذب، ربما كانت تحبني حقا، حبا صادقا. كسر هذا الصمت يقول بعدما أن استرجع أنفاسه قليلا: حملت حقيبتي على كتفي وانطلقت نحو المجهول، بن أكن اعرف إلى أين سوف أذهب، فجميع الأبواب كانت مسدودة في وجهي، قد يحكم على الإنسان أحيانا بالشقاء، هكذا فقط، بلا سبب ولو سبب تافه، مجرد حكم عشوائي، حتى وإن لم يكن الشخص قد اقترف اي ذنب، يستحق عليه العقاب، قد يسأل الإنسان نفسه طويلا، ما هو الذنب الذي اقترفته؟ لكي يحكم على بالشقاء؟ يأتي على الإنسان حين يشعر فيه كأنه سفينة بلا ربان، تائهة في بحر لا متناهي، تلعب الرياح والأقدار بمصيرها، لاحول لها ولا قوة لها، سوى

المشاهدة والخضوع، لا شيء مهم والأسو ممكن، إن الوجود، غير عادل، فوحشيّ لا يرحم الضعيف، هذه الحياة حقيرة، تحترم وتنبسط، فقط لمن في يده سوط.
كنت أتساءل دائما مع نفسي، اين هو هذا الإله؟ الذي يدعي أنه عظيم وأنه مطلق كل شيء، اين حكمته المطلقة؟ كنت اسخر دائما من الشيوخ، الذين كنت أطلق عليهم لقب تجار الدين، الذين كانوا يزوروننا من حين لآخر في الخيرية، دائما كانوا يرددون إن المؤمن مبتلى، وأنه لشرف لنا نحن معشر اليتامى، أن نكون يتامى.
كنت اضحك كأنني اسمع نكتة، اي شرف هذا الذي يتكلمون عنه؟، أن تعيش طفولتك كأنك شيء، بعيدا عن كونك انسان، أن ترى نفسك وحيد، أن تكون بلا عائلة حقيقية، أن تحرم من شعور الأمومة، أين الحكمة من هذا كله؟ طبعا هؤلاء الشيوخ لم يجربوا هذا الإحساس اللعين. اما عمال الخيرية والمربيات فقد كانوا يستمعون للشيوخ ورؤوسهم مطأطأ إلى الأسفل، مظهرين نوعا من الخشوع المفضوح. اما عندما كان يردد أحد الشيوخ أية اليتيم، فكانوا يتباكون، اما نحن معشر اليتامى كنا كأننا في مثل عزاء لنا، كنا نعرف اننا نحن هم القصودين، فكنا نبكي نحن أيضا، في هذا الجو المملوء بالنواح، كان الضيوف يتأثرون، أو ربما يتذكرون سنويا قاموا بها، فيتبرعون بأموال كثيرة للخيرية، لولا

الملامة، لقلت أن الغرض من هذه المسرحية كلها، هو فقط جمع التبرعات، فالمربية دائما كانت تردد عبارة مشمئزة تشعرني بالغثيان كلما تذكرتها: -كلوا واشربوا و اشكروا المحسنين، جزاهم الله خيرا، فلولاهم لما توفرت لكم هذه المأكولات و المشروبات و الملابس و غيرها. بمجرد ما أن يغادر الشيوخ حتى تعود المياه الى مجاريها، يعود كل شيء إلى طبيعته، نعود من جديد مجرد أرقام، لماذا لا يتعاملون معنا على اننا إنسان قبل كل شيء؟ فقط تعامل إنساني، لماذا ينظرون إلينا كأننا اشياء عملهم؟ بعد خروجي من الجحيم الاصغر وجدت نفسي في الجحيم الأكبر، عشت التشرد لأيام طوال، اكلت من النفايات، وتوسدت الرصيف. ماذا أملك بحوزتي لا شيء، غير شهادة بكالوريا حقيرة التحقت بها لجامعة ظهر المراز، اخترت لنفسي شعبة الفلسفة، لم تكن تهمني لا الجامعة ولا الفلسفة، كل هذا فقط لأستفيد من الحي الجامعي، على الأقل ساجد مكان ما يأويني من قساوة الشتاء، لكن سرعان ما اكتشفت أمر الواقع، فالحي الجامعي، لم يكن أحسن حالا من الشارع. رطوبة في السقف متأصلة لسنين، جدران تعاقبت عليها صراعات بألوان مختلفة، بيت مشترك لثلاثة طلبة، أسرة حديدية صدئة بلا اسفنجة، أرضية اسمنتية محفرة، كانت الغرفة لا تختلف كثيرا عن الزنزانة، اما منحة

التعليم العالي، فقد كانت هزيلة جدا، بين الدفعة والدفعة تكون قد غرقت في القروض، ما أن تسدد قروضك حتى لا يتبقى معك شيء، حتى المطعم الجامعي كان رديء للغاية، فالوجبة الواحدة لا يمكن تسد رمق جوعك. إن حياة الطالب المغربي بئيسة للغاية، لكن بالرغم من ذلك، لا يمكنني إخفاء ابدا انني قد وجدت أخيرا البيئة المناسبة لي، التي خلفت من أجلها، كنت اقضي كل وقت فراغي في المكتبة، داخل أسوار الحي الجامعي، فقرات هناك، أمهات الكتب الفلسفية، بدءا من كتب، آخر أيام سقراط، الجمهورية، لأفلاطون و كتاب أخلاق نيقولاس لأرسطو وصولا إلى كتب مثل نقد العقل المحض، تأملات في الفلسفة الأولى لديكارت، مقالة في الفاهمة البشرية للوك، تحقيق في الفاهمة البشرية لدافيد هيوم، الأخلاق لسبين وزا، المنطق والمعرفة لبرت راند راسل، وكتب أخرى كثيرة. تمردت على مقررات الجامعية ونقدتها، بينت انها لا تصلح كمنهاج، خاصة لشعبة شقيقة للعقل مثل الفلاسفة. اي جريمة هذه قام بها هؤلاء، الذين يسمون أنفسهم اساتذة جامعيين في حق الفلسفة، كنت لا اضيع اي فرصة في نقد المطبوعات التي كان يقدمها لنا الأساتذة، التي كانت تعتمد بالأساس على مسالة الحفظ التي تقيد حرية ابداع الطالب، خلق لي هذا حزازات مع أساتذة كثر، لكن كان أيضا منهم أيضا

من اتفق مع وجهة نظري. تشبعت بالفكر الماركسي في البداية ثقافيا وفكريا ثم تطور الأمر، بعد ذلك إلى أن أصبح انتمائيا، خذت نقاشات ضد الرأسمالية وعيوبها ونظمت حقليات كثيرة، ناقشت فيها أمور الحكم والشعب والمستجدات، دخلت في نضالات حقوقية ضد ادارة الكلية، انتخبت في النهاية وسرت الرئيس الإقليمي لفصيل الرفاق موقع فاس. استهدفت من طرف المخزن واعتقلت عدة مرات، بتهم واهية. لقد داع صيتي وكتبت مقالات طوال، نشرت في الجرائد والمجلات الوطنية ثم بعد ذلك في عدة دول اخرى، اسلوبي في الكتابة، كان مميزا يمتاز بالبساطة وبعد النظر وخاصة بجرأة في طرح الأفكار. أنهيت تعليمي في الدراسات الاساسية، حصلت على شهادة الإجازة في الفلسفة، بميزة حسن جدا، في مدة ثلاثة سنين. بعدها رسمت أحلاما كثيرة، وظيفة محترمة، والاستمرار في البحث العلمي. تقدمت إلى عدة وضائف فلم اقبل في اي منها وبلا حتى تبريرات لسبب الرفض، بالرغم من كفاءتي، التي لا يمكن لأي أحد المزايدة عليّ فيها، علمت فيما بعد أن كل المنتمين لأي تيار فكري، مهما كان سواء الإسلامية منها، مثلا العدل والإحسان او اليسارية مثلا الرفاق، فهم لا يقبلون في الوظائف العمومية، إلا بشكوك الغفران، المخزن يضعك أنا خيارتين لا ثالث لهما؛ يا إما أن

تتنازل عن كل شيء أو ان تخسر حقك في الوظيفة العمومية. اما انا فقد كنت من النوع الذي لا يتنازل بسهولة عن مواقفه، لكن لسوء حظي، المخزن هو الآخر يملك صبر أيوب. عندما فهمت اللعبة جيدا، بدة لي الهجرة هي الحل، فقصدت ميناء طنجة، لعله يكون البوابة التي تربط بين العالمين، عالم الألم والمعاناة وعالم الحرية والرخاء. فانفذ منها بجلدي.

صمت صديقي قليلا وقال: -هذه باختصار قصتي. لقد كنت مذهولا للغاية من الذي سمعته، حقا إنه لظلم كبير وإن الحياة ليست بعادلة.

كانت الساعة متأخرة. كنا ما زلنا ممددين على الأرض، رفقت الكلبة لويزا، تمر بعض الأحيان على الإنسان حيث يجب عليه إيجاد مكان، مكان تربطنا به علاقة وجودية، حيث يشعر فيه بالكمال الغائب، فالوطن ليس بصدقة الولادة انما بالحب، ذلك الحب المتبادل، أينما وجد الإنسان هذا الحب فهذا هو وطنه. عدنا الى الخرباء ثم اتقينا في امكنتنا وغصنا في نوم عميق.

كان صباحا غريبا، فقد كانت الشمس بلا حرارة، شعرت بطمأنينة لم يسب لي الشعور بها منذ ان كنت طفلا صغيرا، سكينة وصفاء، كأنني ولدت من جديد كأن دينا ما كان على كتفي وقد اديته الآن. جلست في مكاني وانا

ابتسم بلا اي سبب مقنع، فقط ابتسم، واصغي إلى شذو العصافير، التي انفجرت تغني وتلعب في سماء زرقاء، رددت في نفسي انه صباح جميل. استيقظ صديقي هو الآخر ثم قمنا بدورتنا الصباحية كعادتنا؛ نجمع الشاي السكر من المقاهي، في المساء ذهبنا إلى المرسى وانتظرنا هطول الظلام، تسمرنا في امكنتنا مثل الجماد، لم نصدر أي صوت ولم نقم بأي حركة، كنا نعلم جيدا ان اي حركة منا قد تلفت الأنظار إلينا، عندها سيشددون الحراسة. كان الحارس ضخم الجثة على وشك الاستسلام للنوم. هذا ما استنتجناه بعدما قلت حركته وتباطأت. ما هي إلا دقائق قليلات حتى اختفت حركته بالمرة. لقد كان يأتي ويروح مثل الإنسان الآلي، في خطى ثابتة وفي بعض الأحيان مباغته، خاصة عندما يسمع صوت خشخشة هنا أو هناك، كان يحمل في يده اليمنى، كشاف صغير، لكن ضوئه الأصفر كان قويا، وفي اليد الأخرى كان يحمل عصى حديدية طويلة.
نظرت إلى رفيقي، ولم ننطق بأي كلمة. فقط تخاطرنا بلغة العيون، ثم تراجعنا للوراء بهدوء، إلى أن أصبحنا بعيدين عن المدخل. لقد كان كل شيء قريب منا، كنا على وشك النجاة، إنه الانعتاق، إنه الخلاص، الأمر بسيط للغاية وليس معقد، يمكننا حقا فعلها. استيقظنا في الصباح ونحن عازمان على تنفيذ العملية، هذه فرصتنا،

فالأمر ليس صعب كما كنا نتوقع. اشترينا التمر وملأنا القنينات بالماء، وحزمنا امتعتنا، وتربصنا بالسفينة وانتظرنا غروب الشمس بفارغ الصبر، عشرات الاسئلة كانت تدور في عقلي، ماذا لو لم ينم الحارس مثلما فعل ليلة البارحة؟ هل هي عادته ام البارحة كان فقط استثناء؟ على اية حال، نحن عازمان على التسلل الى الداخل، مهمي كانت الاوضاع. هطل الليل، بدأ الحارس باستعراضه، ذهابا ومجيئا، ثم بدأنا نلاحظ تباطء حركاته شيء في شيء، الى ان أيقنا انه سينام لا محالة، مثلما فعل البارحة. غمزت لصديقي: هيا بنا، انتصبنا واقفين وانطلقنا مسرعين شبه راكعين. لم اشعر بالخوف، فعندما يصل الانسان الى مرحلة معينة، فإنه يصبح مثل آلة آلية مبرمجة حاسوبيا، فقط ينفذ، مهما كانت نتائج محاولتنا هذه، فلن تكون اسوء من وضعنا الحالي. بدأنا نسير بخطى سريعة وفي نفس الوقت بسكون تام، كي لا نصدر أي صوت، فيستيقظ الحارس فيكشف أمرنا. تسللنا إلى السفينة العملاقة، مثلما تفعل الفئران عندما تدخل إلى مجاري المياه. لقد كانت سفينة ضخمة، بدت لنا مثل وحش قد ابتلع عشرات السيارات والشاحنات، بمجرد ما إن تقدمنا قليلا حتى شعرنا بأننا في متاهة. همس لي صديقي في أذني: يجب أن نبحث عن شاحنة تكون مغطاة بغلاف. بدأنا بالبحث عنها،

سرعان ما لمحنا شاحنة ضخمة صفراء مغطاة بقماش احمر طويل. بدأنا بتسلقها، أخرج صديقي نصف السكين الذي كان في جيبه وأحدث فيها ثقبا طويلا، استطعنا من خلاله الدخول الى قلب الشاحنة. أخرجت الابرة والخيط من جيبي ثم بدأت على الفور بتنفيذ نصيحة باء حسان. بدأت اخيط الفتحة التي دخلنا منها، بسرعة وبدقة عاليتين. بعد ما رقعت القماش واختف الثقب. استلقينا انا ورفيقي فوق اكوام من الأكياس البلاستيكية المملوءة بالقطن في ير مصدقين اننا فعلناها، فقد كان قلبي يخفق بسرعة مثل قلب عصفور صغير سقط من العش في أيدي غريب. فلا أحد يعرف ماذا سيحدث فيما بعد. ربما كشف امرنا، او قد تسلط علينا كلاب مدربة، فتكشفنا. كنا نتقس بصعوبة بالغة، بالهواء هنا يكاد يكون معدوم، بدأنا نعد مؤونتنا، لدينا أربعة ليترات من الماء ونصف كيلوجرام من التمر. اتفقنا أن نأكل كل يوم ستة حبات من التمر لكل واحد منا وأن نشرب كأسا من الماء في الصباح ثم حبتان وكأس عند الضهر وفي المساء أيضا حبتان وفي العشاء حبتان ونشرب كوب واحد من الماء. حاولت النوم لكنني لم أستطع، فقد كان تفكري جد مشوش، كنت كالذي يجلس على قنبلة موقوتة، لا يعرف متى ستنفجر، لن يرتاح لي بال حتى ينتهي كل شيء بسلام. ما زلت لا أصدق اننا قد تسللنا حقيقة إلى قلب

السفينة. وأننا قد دخلنا إلى السفينة بهذه السرعة والسلاسة، فقد حدث كل شيء في ومضة من الزمن. بعد انتظار ساعات من الزمن، شعرت كأنها أيام، سمعت أخيرا، صوت رجال يتكلمون بلغة أجنبية لا أجيدها، ربما الاسبانية أو البرتغالية. تسمرنا في مكاننا دون حراك، لقد كنت أستطيع ان ارى هؤلاء الأشخاص من خلف الغطاء، لقد كانوا أربعة من الحرس، شعرت بالعجز فلم أستطع تشفير ما يقولونه، لكن حدست من خلال ضحكاتهم، ولغة أجسادهم، ان كل شيء على ما يرام. فجأة اغلقت البوابة الضخمة وساد ظلام حالفي ارجاء المكان، عندها أدركنا ان السفينة على وشك الانطلاق شعرنا بالسوء لأننا لم نودع أرضنا، وأصدقائنا، فنحن لا نعلم هل سنعود من جديد إلى هذه الأرض، ام انه الفراق الابدي، فليس من العقل في شيء ان تعود للأرض التي طردتك. شغلت محركات السفينة وانطلقت ببطء لدرجة اننا كنا نشعر بحركتها جيدا، فجأة انطلقت بسرعة، فلم نعد نشعر بحركتها، هل هي متوقفة ام هي تسير؟ لولا صوت البحر والأمواج المتصادمة، لقلنا انها متوقفة، لكن في الحقيقة كانت تسير وبسرعة عالية. أخرج صديقي المؤونة وقسمنا بيننا بالقسمة التي اتفقنا عليها، ستة حبات تمر وكاس ماء لكل واحد. اكلنا وشربنا. كنا متوترين للغاية، لتخفيف توترنا قليلا طلبت

من صديقي أن يحكي لي قليلا عن تاريخ الفلسفة، اعتدل في جلسته وقال لي: -عندما نصل بسلام الى ارض السلام، سأقترح عليك قراءة كتاب بسيط ومبسط عن تاريخ الفلسفة، لكنه جيد، فهو يلخص تاريخ الفلسفة كله، انه كتاب "عالم صوفي". ثم أكمل يقول: لن أستطيع في الحقيقة أن أحدثك عن كل تاريخ الفلسفة، لكن سأحاول ان الفلسفة هي حياة اليوناني القديم، الذي ترجم حياته وأولوياته بناءً عليها؛ فقد أرجع كل شيء إليها، كما أنه لم يُبدِع في شيء مثلما أبدع في الفلسفة والأدب. وقد قدمت لنا الفلسفة اليونانية أعظم الفلاسفة على الإطلاق؛ فهم الذين وضعوا بذرة الفلسفة للعصر الحديث، فقد وضع هؤلاء الفلاسفة المبادئ الأولى للفلسفة، ولكنهم أيضًا لم يأتوا من العدم؛ فثَمَّة إرهاصات كانت بمثابة بصيص من النور الذي حوَّلَهُ فلاسفة اليونان إلى شعلة حملوها ليضيئوا بها شمس الحضارة الإنسانيَّة. وهو ما التقفَه الفلاسفة المسلمون والأوروبيون على حدٍّ سواء؛ ليستكملوا مسيرة العلم التي لا تنتهي أبدًا. وقد حدَّد لنا يوسف كرم الأُطُر الأساسية التي قامت عليها الفلسفة اليونانية منذ فجر التاريخ، وحتى انتهاء دور الفلسفة اليونانية، ليبدأ طَوْرٌ جديد من الفلسفة والمدرسية.

كان من الواضح انني لم استوعب اي شيء من الذي سمعته، لكن بالرغم من ذلك تظاهرت بأنني أستوعب ما

اسمع، كنت اطأطأ رأسي مرة، وأردد «نعم اه نعم" مرت أخرى. شعرت حقا بالملل، لا أدري كيف يستطيع طلبة الفلسفة، التركيز مع هذا الفكر الذي أقل شيء يمكننا أن نقوله عنه أنه نظري، بل وغامض في الكثير من الأحيان مثل الميتافيزيقا. بالرغم من أنني لم استوعب كل ما سمعته، إلا أننا قد استأنسنا بالمكان وهذا أفضل شيء. لحكمة نجهلها، كان الوقت يمر ببطيء، جاءت الظهيرة وجاء المساء ونحن ما زلنا مثمرين في مكاننا، شعرنا كأن النهار قد تمدد. لقد كانت لحظات عسيرة حقا، من الصعب استوعاب فكرة أن تكون جرذ، نعم جرذ، تختبئ بحذر وتحذر ألا تصدر اي صوت وإلا سيقبص عليك. يحكى أن الموتى، قبل موتهم بثواني قليلات، يسترجعون شريط حياتهم كلها، فيتذكرون اهم النجاحات والإخفاقات، بل يتذكرون ايضا أسماء الشخصيات التي مرت في حياته أو على الأقل، تلك التي كانت أكثر أهمية بالنسبة لهم. الغريب انني في لحظة من اللحظات، شعرت بنفس هذا الشعور، فبدأت اتهلوس، شعرت برغبة في البكاء، لكن داخليا بلا دموع، شعرت أن قلبي قد انقبض، فقط حزن عميق وغامض. شعرت كأن الجو قد أصبح باردا، ثم شعرت أيضا بالرهبة، عندما نفى صديقي وجود أي تغير في الجوّ، عندها سألت نفسي: ما الذي يحدث لي؟ بدأت اسمع أصواتا

غريبة تخاطبني، في البداية كان الصوت ضعيفا بالكاد يسمع، ثم بدأ بالارتفاع إلى أن أصبح صاخبا لدرجة لا تحتمل. ازداد خوفي عندما نفى صديقي سماعها، شعرت كأنني أنا المستهدف فقط، اشتعلت الحرارة في جسمي، بعدما كنت قبل قليل ارتجف من شدة البرد. انا الان اتصبب عرقا، شعرت برغبة في إصدار انين، كانت الرغبة لا تقاوم، فبدأت اؤنب مثل الأطفال الصغار تارة مثل بهيمة تتألم تارة أخرى، إلى أن طلب مني صديقي ان اخفض صوتي، وإلا سنفضح، لكنني عجزت عجز العجزة على أن أشرح له انني لا أستطيع، انا حقا لا أستطيع التحكم في افعالي وسلوكياتي، فقد كانت هناك قوى ما اقوى من ارادتي، حتى صديقي بدت لي ملامحه مختلفة، كأنه قد بدأ بالتحول شيء فشيء، الى أن أصبح شكله أقرب ما يكون إلى ماعز، لم أجرأ أن أخبره بأنني قد خفته، حتى إن أردت لن أستطيع التعبير. شعرت كأنني قد عزلت من عالم وانتقلت الى عالم آخر، شعرت بأنني مكبل، لا أستطيع التعبير، كأنني أبكم، او بعبارة أخرى كأن قوى ما، قد سيطرت عليَّ وقد سلبت مني القدرة على التواصل والتعبير، شعرت ان فمي عاجز وملامحي هي الأخرى مرخية، كل ما أستطيع فعله هو الأنين مثل حيوان جريح، الشيء الذي زاد حيرتي هو انني واعٍ ومدركٌ لكل صغيرة وكبيرة من حولي، فقد

كان ادراكيي وفهمي للأمور قد ازداد بشكل رهيب. بدأ جسمي الضعيف بالارتجاف والعرق يتصبب مني من جديد. لقد أدرك صديقي أن الأمور بدأت تخرج عن السيطرة، بدى القلق واضح عليه. بدأي يهدئني ويضمد جبهتي بالماء. سمعته كأنه قال لي إذا بقيت الامور على هذه الحال، سنضطر للخروج، كنت اريد ان اقول له كلا لا أرجوك لا رجوع للوراء، لكن لم تكن لدي الجرأة للنظر في وجهه القبيح، او على الاقل الذي أراه انا قبيحا بسبب الهلوسة، كنت اعلم ان كل ما اراه واسمعه ما هو إلا هلوسات، لكنها كانت هلوسات حقيقية. ازداد الألم هذه المرة، لكن هذه المرة على مستوى بطني، بدأت باسترجاع كل التمرات التي اكلتها، عندما أصبحت ما عدتي فارغة شعرت كأنني استرجع مصاريني. دخلت في غيبوبة لا أدري كم استمرت. استيقظت على صوت الاجانب، لا شك أن صديقي هو من اخرجني من الشاحنة أسفل السفينة إلى السطح، لقد كشف أمري، شاهدت أحدهم يقدم لي حبوب دواء، اكلتها لكن حالتي ازدادت سوء. لقد شعرت لأول خرة في حياتي بسكينة غريبة لدرجة أنني كنت ابتسم وأقول للأجانب عن طريق الأنين، أرجوكم لا تشغلوا بالكم معي. فالإنسان اتى الى هذا الوجود غريب وسيعود إلى العدم كذلك غريب. ما هي إلا ساعات حتى بدأت اسمع رنين في

أذني، كانت تزداد حدته تدريجيا الى ان احسست بتباطء ضربات قلبي، عندها أدركت انني على وشك مغادرة هذه الحياة، سمعت صوتا ينادي على من بعيد، انه صديقي خرج أخيرا من الجحر، ربما أدرك انه وقت الوداع، حضنني بين ذراعيه، كنت مثل جثة هامدة بالكاد استطعت فتح عيني، بكى طويلا وبحرقة، ثم صرت بعد ذلك عدماً إلى الأبد.

النهاية: يوم الاثنين 6 سبتمبر 2021 دوار اولاد البالي- خالد فرشاش.